أساطيرُ العالمِ المفقودِ

دراسةٌ نفسيَّةٌ في التَّاريخِ الأسطوريّ

د. أيوب الحجلي

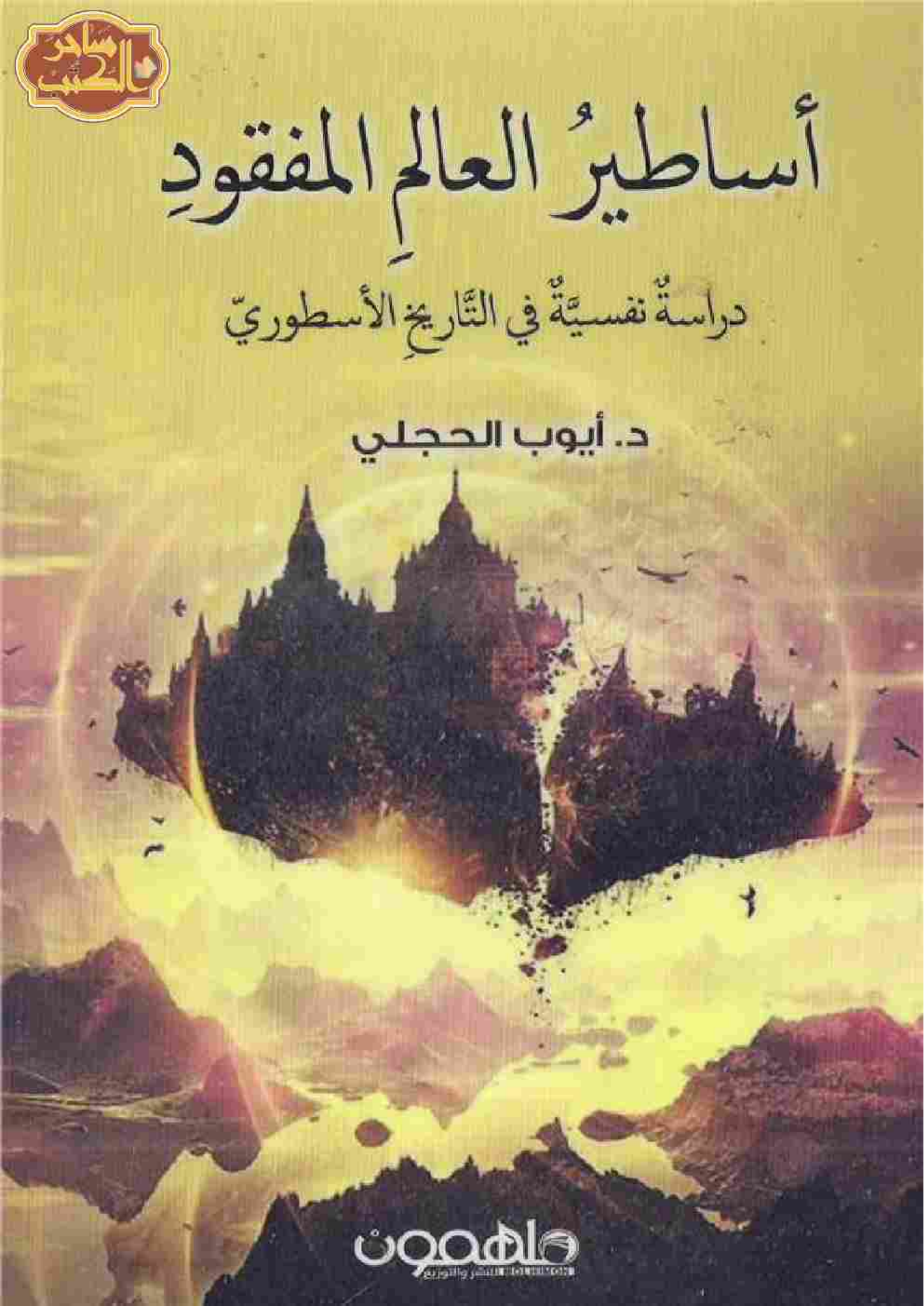

ملهمون
للنشر والتوزيع

لتحويلك إلى الجروب أضغط هنا

لتحويلك إلى الموقع أضغط هنا

للمزيد من الروايات والكتب الحصرية
انضموا لجروب ساحر الكتب

او زيارة موقعنا sa7eralkutub.com

الكتاب: **أساطيرُ العالمِ المفقودِ**

المؤلف: **د. أيوب الحجلي**

تصنيف: **تاريخ**

الناشر: **ملهمون للنشر والتوزيع**

الطبعة الأولى: **يونيو** 2017

الرقم الدولي المتسلسل للكتاب: ISBN 978 - 9948 - 23 - 757 - 0

رقم إذن الطباعة: 203017

جميع حقوق الطبع و إعادة الطبع والنشر والتوزيع محفوظة لملهمون للنشر والتوزيع، ولا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي من ملهمون للنشر والتوزيع.

darmolhimon@gmail.com darmolhimon @Dar_Molhimon @DarMolhimon

د. أيوب الحجلي

أساطيرُ العالمِ المفقودِ

دراسةٌ نفسيَّةٌ في التَّاريخِ الأسطوريَ

الإهداء

إلى كل عقلٍ أشعلَ شمعةً في سخامِ الجهلِ فارتقى سُلمَ المعرفةِ
ليُمسكَ ضياءَ النجوم.

أيوب

مقدّمةٌ

الإنسان القديم - بداية الوجود وفجر التاريخ الأول- عرف الطبيعة البكر التي كانت بالنسبة له مجهولاً غامضاً، يمور بالأخطار المحدقة عند غياب الشمس، فعاش في هذا الغموض أحقاباً عديدة متتالية، حتى أَلِفَ المحيط حوله، وبدأ يصوغه بلمسته الإنسانية الأولى مبتعداً عن الهمجية والمشاعية، ومرتقياً الدرجة الأولى في سلم التطور الطبيعي.

من هنا بدأت قصة الروح والوجود، فقد جمع العقل البشري في بداياته معارف بدائية مكتسبة، وجمع أيضاً خبرات بسيطة من تجاربه اليومية التي كانت تهدف إلى البقاء فقط، وأصبحت الحياة العادية تجنح إلى الرقي والراحة، فانتقل من العيش في عتمة الكهوف إلى العيش في الهواء الطلق، وانقلب دوره من الهروب كفريسة للحيوانات التي شاركته الطبيعة إلى صياد، ومن صياد يلاحق الحيوانات إلى مُربٍّ لها، ومن إنسان متنقل إلى إنسانٍ مستقر قُرب الأنهار والبحيرات الضخمة طمعاً بالنباتات المتنوعة التي كانت بالنسبة له واحدة من مصادر القوت.

وبهذا التطور أصبح الفكر المنغلق يتفتح شيئاً فشيئاً، ليدرك ما هو أعمق من وجودٍ ماديٍّ وطبيعةٍ تملأ حيز الوجود، وما ينبه حواسه الخارجية من شمٍّ ولمس وسمع وبصر وتذوق، بل أصبحت مداركه تأخذ

مساراً أعمق من المسار الوجودي هذا، لأن العقل البشري بطبيعته متجدد، يسعى دائماً إلى المعرفة والاكتساب، فرخاء العيش في عتبة التطور الأولى جعل الإنسان يرى الأمور اليومية بمنظور مختلف عمّا كان أيام المشاعية القديمة، فأصبح يملك أراضي وحيوانات وأنهاراً وبيوتاً مبنية، وأصبح مندمجاً ضمن مجموعة، همّها القوت اليومي، فبدأت نظرية التملك والحياز التي زرعت بذرة الجنين الأولى في أحشاء اللاوعي، وساعدت في مخاضه الظواهر الطبيعية الغريبة حوله من موت وأحلام وولادة وزلازل وكسوف وخسوف وأعاصير وصواعق، فولدت «الأسطورة» وبدأت المرحلة التي هدمت كل ما قبلها تتصدر وبجدارة سطور التاريخ الأولى لتبدأ الحكاية.

كان الإنسان يسعى إلى الوصول لمصالحة مع نفسه، وإنهاء التساؤلات التي كانت تنهش تفكيره بشراسة، فقد شاهد جمال الطبيعة وتجددها واستمرارها، تتالي الفصول وتعاقب الليل والنهار وجمال النجوم وأشكالها، ونور القمر وسحره، وموسيقا الأنهار وترنيمات الطيور وتنوعها، حتى باطن الأرض وما فيه من عجائب المخلوقات وغرائبها، فكانت تقف أفكاره عند سؤال واحد فقط «كيف؟» وما يعنيه هذا السؤال من عمق وتشعب:

- كيف بدأت الحياة؟

- كيف مات الأسلاف؟

- كيف غابت الشمس؟

- كيف اهتزت الأرض؟

- كيف خرج الطفل من المرأة؟

وإلى ما لا نهاية من «كيف؟» التي أغرقته في همٍّ لا نهاية له، فسعى بكل وعيه وتفكيره وجهده لحل المعضلة، ووضع الأساس الذي يستطيع أن يبني عليه فكرته، فكانت العبادات الأولى التي تُرضي بعض فضوله، وتُهدِّئ من روعه، وهي عبادات الأسلاف الذين ماتوا واندثروا دون التعرض للكون ووجوده الأول، ومن ثم تطورت إلى مجموعة عبادات بدائية، كانت تسعى في مجملها إلى تقديم القرابين والتقرب من أرواح الأموات فقط، بعيداً عن خوض المجهول فيما قبل الأسلاف، وكنا قد تحدثنا بإسهاب عن فكرة التكوين الديني القديم في مؤلف سابق لنا «الحقيقة السوداء والأرض المُحرمة»[1].

وبعد أن بدأت الأملاك المادية تزداد وتزدهر، وأصبحت متطلبات الحياة اليومية تتكاثر بطريقة سريعة، حيث لم تكن الملابس الملونة وأدوات الزينة والأقراط والأساور والقلائد والعطور من متطلبات الفرد، ولكن بوجودها أصبح لدى الإنسان هاجسٌ جديدٌ وهو جمع الثروة والحفاظ عليها، وبما أنه كان ينتمي لمجموعة تطمع بما يطمع، كان لا بد من حكم هذه المجموعات بسلطة أقوى من العنف ومن الاشتباكات اليومية، وباعتبار أن هناك عبادات كانت سائرة بين الجموع، وجب وضع أسس لقواعد عبادات جديدة وغنية بفكرتها ومضمونها، لتدحض ما قبلها،

(١) الحقيقة السوداء والأرض المُحرمة: د. أيوب الحجلي. دار أكتب / مصر طبعة أولى ٢٠١٧.

فبدأت ترتقي لأبعد من موت الأسلاف، وبجرأة فريدة إلى التكوين الأول، وحل طلاسم أيقونة الوجود كاملة، فبدأت تدوّن أولى أساطير التكوين التي كانت بمجملها تتحدث عن خلق الأرض والسماء والإنسان من قِبل قوة خارقة تمثلت بآلهة مشابهة للإنسان أو خلقت الإنسان على شاكلتها.

وفكرة الأساطير التي بدأت تتكون لم تكن كاملة كما نعرفها الآن، وإنما كانت نصوصاً تراكمية تنشأ حسب الحالة العامة لأصحابها القائمين على خدمتها، حيث ذكرت أغلب أساطير التكوين بعد خلق السماء والأرض خلق الإنسان ليكون عبداً للآلهة التي أورثته الأرض ليدير شؤونها ومصالحها، وهذه الفكرة كانت القانون الأول للخضوع، حيث اصطفت الأسطورة طبقة معينة من الناس «العرّافين» ليكونوا أولياء على العامة، وليقيموا الطقوس اللازمة لاستمرار نعمة الآلهة على البشر، وغدت هذه السلطة أكبر من السلطة السياسية التي كانت لا تُقرّ إلّا بمباركة المعابد والآلهة التي تتحدث إلى العامة عن طريق شاماناتها وعرّافيها.

التكوين الأسطوري كما ذكرنا كان يرجع إلى أهداف وخفايا وبواطن نفسية تلبي رغبات القائمين عليها، فالطاعة والثراء والسلطة والحكم المطلق كانت تدغدغ آمال العامة أجمع، فراحت تنبثق الآلهة الواحد تلو الآخر، كل في اختصاص ومكان وطقوس ومعابد، فكثرت الآلهة الموجودة، وهذا ما جعل التنافس على السلطة المطلقة يدفع بالأقلام لتدون أساطير تابعة لأساطير التكوين ورديفة لها، تبين حكم الإله الأقوى وحكمته وقدرته الخلاقة، فكانت أساطير الموت والعالم السفلي والبعث والبناء

والزراعة والتشييد والتنجيم الذي أسر ألباب المفكرين الأوائل، ليرسوا أسس العلم الأول في التاريخ المدون وهو «علم التنجيم» الذي يعرف على أنه مجموعة من الأنظمة والتقاليد والاعتقادات حول أوضاع الأجرام السماوية والمعلومات الشخصية وارتباطها بتلك الأجرام وغيرها من الأمور الدنيوية، وقد استخدمت المفاهيم الفلكية منذ البدايات الأولى لذلك العلم خلال الألفية الثالثة قبل الميلاد، ولعب علم التنجيم دوراً مهماً في تشكيل الثقافة وعلم الفلك الأول، وكان المنجّمون يزعمون أن حركات ومواقف الأجرام السماوية تؤثر مباشرة على الحياة فوق الأرض، وحركتها ترتبط بإرادة الآلهة.

وكانت الحضارات العريقة في بابل وآشور تولي هذا العلم مركزاً مرموقاً، حيث يعتبر الفرع الرئيسي من ثقافة بلاد الرافدين باعتباره إحدى الوسائل الرئيسية التي استخدمها الكهنة «المفتشون» لمعرفة الإرادة الإلهية ونية الآلهة، أما الطريقة الأخرى فتكون من خلال التفتيش في أكباد الأضاحي البشرية المُقدمة للآلهة، ويعتبر التنجيم البابلي أول نظام تنجيم متكامل ظهر في الألفية الثانية قبل الميلاد، مع وجود معلومات عن التنجيم السومري الذي ظهر في الألفية الثالثة قبل الميلاد، ويُبين تاريخ علم الفلك البابلي تطور علم التنجيم بمجموعة من الألواح الطينية لنماذج الكبد ٣٢ قطعة طينية يعود تاريخها إلى حوالي ١٨٠٠ قبل الميلاد، وهي أقدم النصوص للعرافة البابلية.

لكن ذُكر التنجيم الكهنوتي السماوي العلمي بالنصوص البابلية القديمة المتأخرة في ١٨٠٠ قبل الميلاد، وبقي خلال الفترة البابلية

المتوسّطة والفترات الآشورية المتوسّطة ١٢٠٠ قبل الميلاد، وبحوالي ١٦٠٠ قبل الميلاد وظف علم التنجيم لتقديم الأضاحي «أيام أنو وإنليل» التي تحتوي على ٧٠ من الألواح المسمارية تضم ٧٠٠٠ طالع سماوي.

وجاء القرن السابع قبل الميلاد الذي كان يتميز بتنجيمه البدائي لعدم قدرة المنجمين على التنبؤ بدقة بالظواهر السماوية في المستقبل وحركة الكواكب البعيدة في وقت مبكر، وفي القرن الرابع قبل الميلاد كانت الأساليب الرياضية لديهم قد تقدمت بما فيه الكفاية لحساب حركة الكواكب المستقبلية بدقة معقولة «ظهور التقويم» المرتبط بالكواكب الأساسية الخمسة «المشتري والزهرة وزحل وعطارد والمريخ» وتمت تسميتها حسب الأدب المسماري القديم بأسماء الآلهة البابلية، حيث كانت حركة هذه الكواكب الخمسة تمثيلاً لنشاط الآلهة الخمسة مع الشمس والقمر، فارتبطت الحوادث على الأرض بحسب نشاط هذه الكواكب، إذ تتم من خلالها معرفة الإرادة الإلهية العليا، ورُتّبت الأسماء كالتّالي:

- الشمس: شمش
- القمر: سين
- المشتري: مردوخ
- الزهرة: عشتار
- زحل: نينورتا
- عطارد: نابو

- المريخ: نيركال

وبعد اعتماد التنجيم كأحد الأساليب في حكم المعابد وسلطتها، بدأت فكرة توحيد الآلهة، لتتسع رقعة السلطة بأكبر قدر ممكن، فحدث الانقلاب على الآلهة القديمة بقيادة آلهة شباب جدد أقوياء استطاعوا فرض سلطتهم القوية على أغلب المعابد حينها.

في بحثنا هذا «أساطير العالم المفقود» قمنا بفتح بابٍ جديدٍ لدراسة الأسطورة القديمة معتمدين على الدراسات الكثيرة والهامة في هذا المجال، حيث طرحنا فكرة البعد النفسي للأسطورة والدافع الباطني الفكري لوضعها وتعميمها، فالأسطورة بمجملها تعتبر رسائل من الماضي القديم لحضاراتنا القائمة، تحمل فيها تجارب وخبرات وتنبؤات وعلوماً غنية وكثيرة، والعالم المفقود هو عالم النفس والعقل الباطن الذي كان له الدور الأساسي في وضع الأسطورة والديانات القديمة في فترات تفاوتت بين عصور مظلمة وعصور ذهبية لحضارات اعتمد على بنائها الأسطوري، لتستمر حيناً أكثر من غيرها، وقد بدأنا بدراسة التكوين الأسطوري الأول «الميثولوجيا» والبحث في التأسيس والبناء الديني الأسطوري في تلك الحضارات، وخضنا دراسة أدبية تاريخية لأهم المؤلفات التي تُعتبر أسطورية في التاريخ الحديث، في الأدب العربي والأدب الأجنبي وهي «ألف ليلة وليلة والسيرة الشعبية وكليلة ودمنة» وعرجنا على الحديث والتعريف بعلم «الأنثروبولوجيا» لتكون القاعدة الأساسية من النظريات في الدوافع النفسية واضحة تماماً، وبعدها قمنا بانتقاء اثنتين من الأساطير التي تعتبر من عيون الأدب العالمي القديم،

بعد أن كنا قد تحدثنا عن أسطورة التكوين البابلية «الأيوناما إيليش» في كتابنا «معتقدات مظلمة»[1] وهما أسطورة «أدون وعشتروت الفينيقية» وأسطورة «الجمال والصدى الإغريقية» وقمنا بتحليل هاتين الأسطورتين تحليلاً نفسياً لمعرفة الدافع النفسي من وضعهما والأبعاد الباطنية من تكوينهما، وأسطورة «الجمال والصدى» تحديداً هي إشكالية في عرض موضوع «النرجسية» أو ما يسمى في علم النفس «اضطراب الشخصية النرجسي» فقمنا بجولة في هذا المرض أو الخلل النفسي، لنميّز بينه وبين بطل الأسطورة نرجس الذي لم يكن يعاني بشكل كامل من هذا الاضطراب، وإنما سُمي باسمه لأنه كان يحب وجهه في انعكاس صورته في الماء.

وفي عنوانٍ آخر قمنا بعرض فكرة النبوءة ودراستها وتحليلها تحليلاً نفسياً وآخر تاريخياً علمياً للإحاطة بأبعادها عبر العصور التي سبقت البعث الإلهي والتوحيد والعبادة السليمة عن طريق أنبياء الله المكرمين سلام الله عليهم، فما هو البعد الآخر للنبوءة في فكر الأسطورة؟ وهل كانت الأسطورة تعتمد على النبوءة التي تعتبر وليدة علم التنجيم والتنبؤ؟

لنجيب عن هذه الأسئلة وغيرها قمنا بدراسة الأسطورة الثلاثية التي بنيت على فكرة التنبؤ في الحضارة الإغريقية، باعتبارها أقرب حضارة أسطورية للمناطقة في فترتها الأخيرة، أمثال فلاسفة اليونان المخضرمين، فقد كانت هذه الأسطورة بشكلها الشمولي عبارة عن ثورات وانقلابات كاملة للسلطة الدينية والحالة الاقتصادية والاجتماعية

(1) معتقدات مظلمة: د. أيوب الحجلي ـ دار الحروف / سوريا طبعة أولى 2012، دار الأيام / الأردن طبعة ثانية 2016

والسياسية حتى في قالب أسطوري فريد، حيث انتقلت السلطة من الأورانوس «السماء» الذي كان يمثل عبادات الأسلاف إلى كرونوس «الزمن» الذي كان يمثل حالة العبادة الزمنية الوسيطة إلى زيوس «كبير مجمع الآلهة» الذي كان هو الحالة النظامية للحكم السياسي في أرض الإغريق والعالم القديم.

وكانت النبوءة هذه دموية عنيفة لمعرفة واضعيها أن الثورة تحتاج إلى الحزم والتغيير، ولا بد لها من طريق الدم في تلك الحضارات، وأن التغييرات البسيطة لا يمكن أن تقلب الحالة العامة أبداً، فحدث الانقلاب الأول الذي لم يكن محققاً لآمال المجتمع، فانقلب بكليته على هذا النظام الذي قام بوضعه سابقاً إلى نظام جديد، هو العصر الذهبي لزيوس وهيرا.

ونظرة عامة عن فكرة التنبؤ في الثقافة العربية الإسلامية التي ارتكزت على النص القرآني والسنة النبوية الشريفة والشريعة الواضحة الجلية والتي لا يشوبها شائبة، ومحكم التنزيل في الجزم أن علم الغيب هو من علم الباري عز وعلا، وأن المخلوقات لا تعرف مغاليق الغيب إلّا بما شاء علمه وإرادته، وحتى في علم التفسير والتأويل بقيت أفكار هذه المذاهب ضمن الحدود الصحيحة، فاتجهت إلى تفسير الأحلام وتأويلها بعيداً عن التنجيم، بعد أن كان التفسير من علوم التنجيم، وتطورت هذه العلوم بما أصبح يسمى «علم الفلك» وهو الدراسة العلمية للأجرام السماوية مثل النجوم والكواكب والمذنبات والمجرات والظواهر التي تحدث خارج نطاق الغلاف الجوي «الإشعاعات الخلفية الميكرو كونية»

وهو يدرس تطور الأجرام السماوية أيضاً، إضافة إلى تكون وتطور الكون، ويعد علم الفلك أحد العلوم القديمة الذي لا يعتمد على التكهن والتنبؤ والغيب، وإنما يعتمد على الفيزياء والكيمياء والحركة والرياضيات، فأبدع الفلكيون العرب في وضع أسس وقواعد هذه العلوم اعتماداً على المعرفة والدراسة والتحليل والمنطق ومنهم «الإدريسي وأبو معشر البلخي وابن باجة» وهذا ما أظهر آلات مبتكرة ومعقدة لدقة العمل في الفلك، وأهمها على الإطلاق «الاسطرلاب» وهو تلك الآلة الفلكية الدقيقة وعرفت باسم «ذات الصفائح» وهو نموذج ثنائي الأبعاد للقبة السماوية، حيث يظهر شكل السماء في مكانٍ محدد عند وقتٍ محدد، وقد رُسمت السماء على وجه الاسطرلاب بحيث يسهل إيجاد المواضع السماوية عليه، وقد كانت الاسطرلابات بمثابة حواسيب فلكية في وقتها، تحل المسائل المتعلقة بأماكن الأجرام السماوية، مثل الشمس والنجوم وقياس ارتفاع الشمس في السماء لإمكانية تقدير الوقت في النهار والليل، وتحديد وقت بزوغ الشمس أو تكبّد النجوم، وقد كانت ساعات جيب لعلماء الفلك في القرون الوسطى، وقد طُبعت على ظهر الاسطرلاب جداول مبتكرة تحتوي على معلومات عن منحنيات لتحويل الوقت، ومقومة لتحويل اليوم في الشهر إلى مكانٍ للشمس في دائرة البروج، ومقاييس مثلثية وتدريجات ٣٦٠ درجة.

وقال البعض: إن مخترع الاسطرلاب بشكله المعروف هو «ابن الشاطر العالم الدمشقي» وقد كتب «بطليميوس» كتاباً عن الاسطرلاب المسطح، وهناك كتابات باللغة السريانية حول الاسطرلاب ترجع إلى القرن السابع الميلادي، وتُنسب إلى «سفيروس» وعلى الرغم من كل هذا

فإن هناك من ينسب هذا الاختراع إلى «أبو إسحق إبراهيم الفزاري» ١٨٠ هجري ٧٩٦ ميلادية الذي يُعتبر أول صانع له في الإسلام، فكان اسطرلاباً مبطحاً ومُسطّحاً، وسرعان ما طور العلماء العرب الاسطرلاب المسطّح، فجعله السّجزيُّ ٤٧٧ هجري زورقاً ذا قُطبين بدلاً من قطب واحد، وكذلك طورهُ العالم البيروني والزرقالي ٤٨٠ هجري وصار شائعاً في قياس الزوايا والارتفاعات، وقد طوّر علماء الفلك المسلمون الاسطرلاب تطويراً كاملاً في العهد الإسلامي بسبب حاجتهم لتحديد أوقات الصلاة واتجاه مكة المكرمة «القبلة» وقد بقي الاسطرلاب مستخدماً على نحو شائع حتى سنة ١٨٠٠ ميلادية وكان الاسطرلاب يستخدم في الملاحة العربية، لتعيين زوايا ارتفاع الأجرام السماوية بالنسبة للأفق في أي مكانٍ لحساب الوقت والبعد عن خط الاستواء.

يتكون الاسطرلاب من عدة قطع منها «العنكبوت» وهي قطعة كانت تمثل مدار الشمس في دائرة البروج والنجوم، وكذلك «الصفيحة» وهي القطعة التي كانت توضع عليها دوائر الارتفاع والسموت ومواقيت الصلاة والمنازل الاثني عشر، وقطعة كانت تسمى «الأم» حيث كانت تحتوي على جميع القطع، و«العضادة والفرس» التي تقسم الدائرة لدرجات لتعيين زوايا ارتفاع النجم أو الشمس لتحديد موقعها.

وبرغم دخول بعض المحاولات لتغيير مسار المعرفة في الدين الإسلامي والدين المسيحي والذي ذكرناه وهو «الديانة المانوية» التي أخذت تتغلغل في الثقافة والفقه الديني، لتصل إلى حد الإقناع لأتباعها الجدد، لكن الحقيقة الجلية تبقى دائماً هي سيدة الموقف والحسم، وقد

قمنا بجولة على مختلف الأديان القديمة التي كانت مبنية على أسس إنسانية. فكرية وليست ربانية في أوروبا وإفريقيا والأمريكيتين وأستراليا وآسيا وبلاد الشام ومصر في كتاب غير هذا الكتاب[1]، هذا لنحيط بفكر هذه الديانات والمعتقدات كاملة بما استطعنا من جمعه ودراسته وتحليله وتدوينه.

وفي تنبؤات العصور الوسطى التي أخذت طابعاً وسمة جديدة وهي الكتب واللوحات الفنية والموسيقا والشعر والأدب العالمي، والتي كانت ترمي إلى التغيير بعد فترة البرجوازيات والباروناتوحكم الكنيسة الذي وقع تحت أيدي المتصرفين والمتنفذين في السلطة، فأصبحت الكنيسة أداة لقمع الشعوب لا للخلاص والتخليص والرحمة، فكانت الثورة هي الحل الوحيد والخلاص من ضائقة الفقر والظلم والجور على الأصعدة كافة، ولكن في كنف تلك الظروف الخانقة كان من الصعب لا بل من المستحيل الإعلان عن ثورة أو التحريض لها بشكل واضح أو صريح، وباعتبار أن الشعب الأوروبي كان متذوقاً للفن والأدب بكل أشكاله ومدارسه، كان هذا هو البوق الخفي الذي يصم آذان الشعب، لينهض ويقتلع شأفة جلاده الحديدية، فاندفع التنبؤ في حلته الجديدة إلى دفع عجلة الحركة والأحداث في أوروبا نحو ثورة عارمة شملت نواحي الحياة المعيشية «الإنسانية والسياسية والثقافية والفكرية والاقتصادية» وبدأت تؤسس لمرحلة جديدة من التطور الأنثروبولوجي الذي بدأ مع بداية القرن

(١) الحقيقة السوداء والأرض المكرمة - مرجع سابق.

الثامن عشر، وأخذت العلوم كافة تتجه نحو التطبيق، بعد أن كانت حبيسة المخادع والمستودعات والمكتبات والمخطوطات السرية، وصارت تُدرّس بعد أن كانت تُهرب أو تُصادر مع أصحابها.

وفي النهاية نأمل أن نكون قد وفقنا إلى الغاية القصوى من الإفادة والاستفادة، والمساهمة في إغناء المكتبة العربية بشمعة صغيرة تُضيء في أحد أركان الفكر والمعرفة وصولاً إلى كل قارئ وباحث يسعى للعلم والمعرفة، مع الاعتذار مقدماً عن أي خطأ أو زلل أو نقص بين دفتي هذا الكتاب، آملين من قارئنا إرشادنا إلى المسار الصحيح، لتكون أعمالنا القادمة قريبة من الكمال والحقيقة، والله وراء نيتنا وهدفنا وغايتنا، وهو خير المطلع على النفوس والسرائر، وبه نستعين.

د. أيوب الحجلي

البداياتُ الأسطوريَّةُ

﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾(١)

كلمة أسطورة Mytho في معناها اللغوي هي مصطلح واسع المعنى، وذو مقاييس خاصة يُطلق على نوع محدد من القصص أو الحكايا أو السير مجهولة المنشأ، أما مصطلح الميثولوجيا Mythology والتي تعني «علم الأساطير» فهو مصطلح يوناني الأصل، ويطلق على العلم الكامل الذي يختصُّ بدراسة منشأ الأسطورة وتطورها، وبدراسة أساطير الشعوب والعلاقات المتبادلة بين هذه الأساطير، كما يُطلق المصطلح على مجموعة الأساطير التي تختص بالتراث الديني الموروث فقط.

والأساطير أو الميثولوجيا هي قصص خاصة، تروى عن الآلهة إذا صح تعبيرنا، أو عن كائنات فوق بشرية متفوقة، هذا في المرتبة الأولى، أو عن حوادث خارقة وخارجة عن المألوف في أزمان غابرة وبشكل حصري، فلا يمكن أن تكون الأسطورة عن حدث في الوقت الحاضر لسردها، لأنها قد تجردها من قدسيتها أو غموضها، فالأسطورة تطرح نفسها على أنها

(١) سورة الفرقان، آية ٥.

جديرة بالثقة، وأنها تسجيل لواقعة أو وقائع حدثت وإن شذّت عن المألوف، أو أنها أمر واقع، ولكنه خارج عن المنطق والمعقول القابلين للمناقشة والبرهان، وقد درج الناس عامة على أن الأسطورة تحكي أحداثاً خارقة يستحيل إثباتها، وجعلوها على هذا النحو مرادفة للخرافة والحكاية، ولها علاقة وطيدة بالتراث الشعبي والأحداث التاريخية، وهي تصوّر متخيل عن نشأة أوائل المجتمعات والمعارف في صيغة قصصية شفاهية منقولة بالتواتر بين أجيال متتالية، وقد تكون الغاية من الأسطورة تفسير بعض العادات أو المعتقدات أو الظواهر الطبيعية، ولا سيما ما يتصل منها بالشعائر والرموز الدينية والتقاليد في مجتمع ما [1].

وكمثال للأسطورة الشعبية في موروث الشعوب سندرس كتاب «السيرة الشعبية» الذي يعتبر الإرث الأسطوري الأول في الثقافة العربية، والسيرة الشعبية هي كتاب يجمع خمس قصص كبيرة على غرار كتاب «ألف ليلة وليلة» الذي يحوي على قصص كثيرة وغريبة عن الجن والسحر والشعوذة، وكلها ترتبط بالقصص السبع المتشعبة التي تجمع بين «علاء الدين والمصباح السحري» و«السندباد البحري الذي قام بعدة رحلات أيضاً ضمن القصة منطلقاً من بغداد مع خطيبته «ياسمينة» التي تحولت إلى عصفورة ناطقة من تأثير سحر أحد المشعوذين، وقام السندباد بخوض غمار المجهول برحلاته تلك، ليخلصها من لعنتها وسحرها، وكانت رحلاته إلى مناطق سحرية غريبة، فالرحلة الأولى إلى الجزيرة المتحركة والخيول البحرية، والرحلة الثانية إلى وادي الألماس،

(١) للتوسع في فكرة الأسطورة ورمزها راجع مؤلفي «الحقيقة السوداء» دار أكتب، مصر ٢٠١٧ / صفحة ٣٠.

والرحلة الثالثة بعنوان الغول الأسود، والرابعة بعنوان السندباد يدفن حياً، والخامسة شيخ البحر، والرحلة السادسة نهرية في كهف مسحور، والرحلة السابعة إلى مقبرة الأفيال» وأيضاً «علي بابا والأربعون حرامي» وهي كلها إرث جمعي لكثير من الكتّاب في العصر العباسي الأول من حضارات فارس والهند ومصر وبلاد الرافدين في إطار قصصي عربي، ونوع من الحبكة الفريدة على لسان الأميرة «شهرزاد» حيث تبدأ قصة ألف ليلة وليلة، أو كما يطلق عليها بالترجمات العالمية «الليالي العربية» التي صدرت أول ترجمة لها بالفرنسية على يد المستشرق «أنطوان غالان» عام ١٧٠٤ وبالإنكليزية عام ١٧٠٦ ميلادية، بطريقة خيالية ساحرة، ليبني على أساسها المؤلف أحداث ملحمته، وملخص بداية ألف ليلة وليلة أنه كان هناك ملك يدعى «شهريار» وكان متزوجاً من امرأة جميلة، وفي أحد الأيام قرر أن يذهب لزيارة أخيه، وهو ملك أيضاً على مدينة أخرى، فوجده في حالة من اليأس، لأنه اكتشف خيانة زوجته، فعاد شهريار بعد أن شعر بشك وريبة حيال زوجته هي الأخرى، واختبأ في القصر بعد أن أخبرها أنه ذاهب برحلة صيد، واكتشف خيانتها مع أحد الخدم في قصره، قرر شهريار وأخوه الاعتزال عن العالم والطواف في الدنيا بلا هدف معين، وبينما هما جالسان على شاطئ البحر فإذ بمارد جني يخرج، ومعه قارورة صغيرة يحتجز فيها أميرة بشرية فاتنة الجمال، أجلسته الفاتنة على حجرها ليغفو، وطلبت من شهريار وأخيه التي انتبهت لوجودهما مختبئين من الجني المارد أن يمارسا معها الجنس، وإلا قالت للمارد الجني إنهما يحاولان اغتصابها، وبعد أن تم الفعل الجنسي أخذت من يد كل واحد خاتماً ووضعته في كيس معها يحوي ألف خاتم،

وأخبرتهما إن هذا الجني أسرها منذ ألف عام، ومنعها من رؤية الرجال ومعاشرتهم، لأنها رفضت الزواج منه، وهي تقوم بمعاشرة الرجال دون علمه، وكل شخص تمارس معه الجنس تحتفظ بخاتمه، هذه الحادثة جعلت شهريار يقدّر قدرة المرأة على المراوغة، وأنها استطاعت خداع الجني نفسه، فعاد إلى قصره، وقتل زوجته وصار يتزوج كل يوم فتاة عذراء، وفي الصباح يقوم بقتلها، لكي لا تخونه، وبقي على هذا الحال حتى طلب من وزيره أن يزوجه ابنته الشابة «شهرزاد» فما كان من الوزير إلا أن أخبر ابنته بالأمر، وأنه سوف يهرب معها، فقالت له: إنها موافقة لغاية في نفسها، وطلبت من أختها الصغيرة أن تختبئ في المخدع، وعندما ينتهي زوجها من ولوجها تخرج وتطلب منها قصة لتنام، وفعلاً طلبت الصغيرة من الأميرة العروس قصة، فقالت لزوجها: إنها اعتادت على هذا منذ زمن، وتبدأ شهرزاد بقصتها الأولى، وعندما يطلع الصباح تتوقف شهرزاد عن الكلام المباح، فيطلب شهريار أن تكمل القصة فتقول له: إنها ستكملها في الليلة المقبلة، فيبقي عليها ليسمع باقي القصة، وهكذا حتى تتم الألف ليلة وليلة، ويكون شهريار قد تعلّم من هذه الملحمة أن الناس مختلفون، فيبقي على زوجته بعدها.

هذه الملحمة كما أسلفنا بنيت على أساس خرافي، لتبدو كأسطورة بمعناها العام، ولكن بعد أن بدأت اللغة العربية تتفكك نتيجة تفكك الدولة العباسية المنتشرة على رقعة كبيرة من العالم آنذاك ودخول غير العرب فيها وفي المجالات كافة تقلص انتشارها كملحمة للغتها القوية، فبدأت فترة عصور الانحطاط في الأدب العربي بعد فترة الممالك الصغيرة التي نشأت على أنقاض الدولة العباسية، فكان الأدب فيها بمجمله قد بدأ

يختلط مع اللهجات المحكية، وظهرت فنون أدبية تعتبر أقل كفاءة لغوية مما عهدناه في اللغة العربية، ومن هذه الفنون ما يُعرف بـ «المقامات» وهو نوع من القصص القصيرة تحفل بالحركة التمثيلية، ويدور الحوار فيها بين شخصين، ويلتزم مؤلفها بالصنعة الأدبية التي تعتمد على «السجع والبديع» وأهمها على الإطلاق «مقامات بديع الزمان الهمذاني» ومن ثم «مقامات ابن نباتة» و«مقامات ابن ناقيا» وآخرها «مقامات الحريري» ١٠٤٥ ميلادية، ورغم هذه الفترة المظلمة من تاريخ الأدب العربي إلّا أن هناك طفرات ظهرت وبشكل مميز من الشعراء والكّتاب والمفكرين في كل هذه الفترة، منهم «أبو الطيب المتنبي - مالئ الدنيا وشاغل الناس - زمن دولة بني حمدان في شمال سوريا وأبو فراس الحمداني، وهناك حادثة مؤرخة للمتنبي في بلاط سيف الدولة الحمداني، وملخصها أن المتنبي عاش في كنف سيف الدولة الحمداني تسعة أعوام، وكان صديقه المقرب، ولكن الشعراء في الدولة وعلى رأسهم أبو فراس الحمداني ابن عم سيف الدولة أخذتهم الغيرة من اصطفاء سيف الدولة لأبي الطيب، فأوغروا صدره عليه، وفي آخر المطاف أرسل سيف الدولة في طلب المتنبي، وعندما دخل ليراه كان جافاً في لقائه، فأنشد أبياتاً جميلة تلخص الحادثة والموقف:

وَاحَرَّ قَلْبَـــاهُ ممّنْ قَلْبُـــهُ شَبِمُ وَمَنْ بِجِسْمي وَحَـــالي عِنْـــدَهُ سَقَمُ

ما لي أُكَتِّمُ حُبّاً قَدْ بَرَى جَسَدي وَتَدّعي حُـــبّ سَيـــفِ الدّوْلةِ الأُمَمُ

أَلزَمتَ نَفسَكَ شَيئاً لَيسَ يَلزَمُها أَن لا يُـــوارِيَهُـــم أَرضٌ وَلا عَلَـــمُ

يا أعدَلَ النّاسِ إلاّ في مُعامَلَتي ... فيكَ الخِصامُ وَأنتَ الخصْمُ وَالحكَمُ

أُعيذُها نَظَراتٍ مِنْكَ صادِقَةً ... أن تحسَبَ الشّحمَ فيَّ من شحمهُ وَرَمُ

وَمَا انْتِفَاعُ أخي الدّنْيَا بِنَاظِرِهِ ... إذا اسْتَوَتْ عِنْدَهُ الأنْوارُ وَالظُّلَمُ

سَيعْلَمُ الجَمعُ ممّنْ ضَمّ مَجلِسُنا ... بأنّني خَيرُ مَنْ تَسْعَى بِهِ قَدَمُ

أنَا الذي نَظَرَ الأعْمَى إلى أدَبي ... وَأسْمَعَتْ كَلِماتي مَنْ بِهِ صَمَمُ

أنَامُ مِلْءَ جُفُوني عَنْ شَوَارِدِهَا ... وَيَسْهَرُ الخَلْقُ جَرّاهَا وَيخْتَصِمُ

وَجاهِلٍ مَدّهُ في جَهْلِهِ ضَحِكي ... حَتى أتَتْهُ يَدٌ فَرّاسَةٌ وَفَمُ

إذا رَأيْتَ نُيُوبَ اللّيْثِ بارِزَةً ... فَلا تَظُنّنّ أنّ اللّيْثَ يَبْتَسِمُ

وَمُهْجَةٍ مُهْجَتي من هَمّ صَاحِبها ... أدرَكْتُهَا بِجَوَادٍ ظَهْرُهُ حَرَمُ

وَمُرْهَفٍ سِرْتُ بينَ الجَحْفَلَيْنِ بِهِ ... حتى ضَرَبْتُ وَمَوْجُ المَوْتِ يَلْتَطِمُ

الخَيْلُ وَاللّيْلُ وَالبَيْداءُ تَعرِفُني ... وَالسّيفُ وَالرّمحُ والقِرْطاسُ وَالقَلَمُ

يَا مَنْ يَعِزّ عَلَيْنَا أنْ نُفَارِقَهُمْ ... وِجدانُنَا كُلَّ شَيءٍ بَعدَكُمْ عَدَمُ

إنْ كانَ سَرّكُمُ ما قالَ حاسِدُنَا ... فَمَا لِجُرْحٍ إذا أرْضَاكُمُ أَلَمُ

وبعدها رحل المتنبي إلى مصر ليلتجئ إلى «كافور الإخشيدي»[1] حينها، وكان قد طلب منه أن يوليه على أحد البلدان في مصر، وماطل

(١) أبو المسك كافور الإخشيدي ٩٠٥ - ٩٦٨ ميلادي كان من رقيق الحبشة وأصبح رابع حكام الدولة الإخشيدية في مصر والشام.

الإخشيدي المتنبي، حتى ضاق به ذرعاً، وغادر مصر عائداً إلى حلب، بعد أن هجاه بقصيدته المعروفة:

عيدٌ بأيّةِ حالٍ عُدتَ يا عيدُ ... بمَا مَضَى أمْ بأمْرٍ فيكَ تجْديدُ

أمّا الأحِبّةُ فالبَيْداءُ دونَهُمُ ... فَلَيتَ دونَكَ بِيداً دونَهَا بِيدُ

يا سَاقِيَيَّ أخَمْرٌ فِي كُؤوسِكُما؟ ... أمْ فِي كُؤوسِكُمَا هَمٌّ وَتَسهيدُ؟

أصَخْرَةٌ أنَا؟ مَا لي لا تُحَرّكُنِي ... هَذِي المُدامُ وَلا هَذي الأغَارِيدُ

إذا أرَدْتُ كُمَيْتَ اللّوْنِ صَافِيَةً ... وَجَدْتُهَا وَحَبِيبُ النّفسِ مَفقُودُ

إنّي نَزَلْتُ بكَذّابِينَ، ضَيْفُهُمُ ... عَنِ القِرَى وَعَنِ التّرْحَالِ محْدُودُ

جودُ الرّجالِ من الأيدي وَجُودُهُمُ ... منَ اللّسانِ، فَلا كانُوا وَلا الجُودُ

ما يَقبضُ المَوْتُ نَفساً من نفوسِهِمُ ... إلاّ وَفِي يَدِهِ مِنْ نَتْنِهَا عُودُ

أكُلّمَا اغتَالَ عَبدُ السّوْءِ سَيّدَهُ ... أوْ خَانَهُ فَلَهُ فِي مصرَ تَمْهِيدُ

نَامَتْ نَوَاطِيرُ مِصرٍ عَنْ ثَعَالِبِها ... فَقَدْ بَشِمْنَ وَمَا تَفنى العَنَاقِيدُ

العَبْدُ لَيْسَ لِحُرٍّ صَالِحٍ بأخٍ ... لَوْ أنّهُ فِي ثِيَابِ الحُرّ مَوْلُودُ

لا تَشْتَرِ العَبْدَ إلاّ وَالعَصَا مَعَهُ ... إنّ العَبِيدَ لأنْجَاسٌ مَنَاكِيدُ

مَا كُنتُ أحْسَبُنِي أحْيَا إلى زَمَنٍ ... يُسِيءُ بي فيهِ عَبْدٌ وَهْوَ مَحْمُودُ

مَنْ عَلّمَ الأسْوَدَ المَخصِيّ مكرُمَةً ... أقَوْمُهُ البِيضُ أمْ آبَاؤُهُ الصِّيدُ؟

وَذاكَ أنّ الفُحُولَ البِيضَ عَاجِزَةٌ ... عنِ الجَمِيلِ فكَيفَ الخِصْيَةُ السّودُ؟

وأيضاً كان من المميزين حينها كما ذكرنا «صفي الدين الحلي وابن حجة الحموي وابن نباتة المصري والبوصيري والشاب الظريف وبهاء الدين الأربلي وبهاء الدين بن النحاس وحمد الله المستوفي وسراج الدين الوراق» وبعض الأعمال الفريدة ومنها «كليلة ودمنة» الذي كان قد نقله من قَبل بصورة ساحرة «عبد الله بن المقفع» عن الفارسية، بعد أن كان يسمى «كتاب الفصول الخمسة» الذي وضعه «بيدبا» كبير حكماء الهند، حتى هذا الكتاب هو كتاب أسطوري غير واقعي، تم وضعه لسن القانون العادل في الهند، بعد أن استولى إسكندر المقدوني على الهند وأقر عليها حاكماً قوياً يدعى «دبشليم» وأصبح هذا الحاكم مستبداً يظلم الرعية، فانتخب الشعب كبير حكمائها «بيدبا» ليخاطب دبشليم وينهاه عن ظلمه وجوره، فما كان من الآخر إلّا أن زج بالحكيم في السجن، وبعد أن أرّق الحاكم كابوس مزعج لم يجد سوى الحكيم بيدبا لفك طلاسمه، وعندها طلب منه أن يسن له قانوناً ينظم الحكم في البلاد، فألف هذا الكتاب على ألسن الحيوانات، وقرأه على الجميع وعلى رأسهم دبشليم الملك، وربما موضوع الحلم أو الرؤية تكرر في أكثر الأساطير والقصص وعبر مر العصور منذ البابليين إلى الكلدانيين إلى الفينيقيين إلى الفراعنة ومروراً بالرومان والإغريق وحتى في التوراة «يوسف الصديق» وهذه الفكرة هي بنية أسطورية لتبرير الأفعال والأحداث القادمة لبعض الشخصيات إذا كانت هذه الأفعال غير منطقية أو غير مقبولة كما فعل «أسخيلوس» عندما كتب تراجيدياته وادّعى أن «ديونيسيوس» إله الخمر طلب منه هذا تلبية لرغبة الآلهة[1]. وأيضاً هناك كما أوردنا «حي بن

(١) الحقيقة السوداء والأرض المحرمة: د. أيوب الدجلي. دار أكتب / مصر ٢٠١٢ صفحة ٢٠.

يقظان» لابن طفيل و«رسالة الغفران لفيلسوف الشعراء أبو العلاء المعري» الذي وصف الليل ولم يره قط لكفّ بصره منذ سنواته الثلاث نتيجة إصابته بمرض الجدري، فقال:

ليلتي هـذهِ عـروسٌ من الزّنـ ـجِ عليها قلائدٌ من جمانِ
هربَ النومُ عن جفوني فيها هربَ الأمنِ من فؤادِ الجبان
ربَّ ليلٍ كأنَّهُ الصبحُ في الحسـ ـنِ وإن كانَ أسودَ الطيلسانِ
قد ركضنا فيهِ إلى اللهوِ لمّا وقفَ النجمُ وقفةَ الحيران
وكأنّ الهلالَ يهوى الثريـّا فهما للوداعِ معتنقانِ

ولا ننسى أيضاً الفترة التي انتشر فيها المذهب الصوفي والتقية، وكان روّاد هذا المذهب الديني الأخلاقي يعملون في حياتهم لوجه ربهم، فيهيمون في الدنيا بحثاً عن الرضى والدخول في كنف الطاعة للخالق العلي القدير، وكان من كبار المتصوفة والزهاد:

«أبو يزيد البسطامي سلطان المتذللين، أحمد السبتي، بشر الحافي، ذو النون المصري، أبو القاسم الجنيد، حسن ابن منصور الحلاج، شمس التبريزي، جلال الدين الرومي، رابعة العدوية، أبو سفيان الثوري، إبراهيم بن الأدهم».

وقد كُتبت عن سيرهم وقصصهم الكثير من الأساطير التي أحاطت فترة حياتهم بهالة من الرهبانية، فأصبحوا فيما بعد من أساطير الدين في مخيلة الشعوب، وكذلك ظهور المذاهب الأخلاقية في

الدين الإسلامي برسائلها وتعاليمها مثل «رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا» و«رسائل الحكمة» والشعراء الصوفيين الذين أثروا الأدب العربي بأروع معاني العبودية والتذلل للباري في علو مكانه، ونذكر قول الحلاج:

ولو قدرتُ على الإتيانِ جئتُكـــم سعياً على الوجهِ أو مَشياً على الرّأسِ

ما لي وللناسِ كم يلحونني سُفهاً ديني لنفسي ودينُ النـــاسِ للناسِ

ومحتوى السيرة الشعبية مختلف عن ألف ليلة وليلة، وذلك لأنها بنيت على قصص حقيقية آنذاك، ولكن يدخل في صياغتها الخيال الشعبي، ليجعل من تلك القصص أسطورة شعبية مع أبطالها، وقد جمعت خمس قصص مختلفة في الزمان والمكان، وكُتبت بطريقة أبيات شعرية ركيكة البنية، تُباعد بين أحداثها وتقارب المليون بيت شعري، وقصصها الخمسة هي:

- أولاً: قصة عنتر بن شداد: وهو عنترة بن شداد بن قراد العبسي ٥٢٥ - ٦٠٨ ميلادي، وأحد أشهر شعراء العرب في فترة ما قبل الإسلام، واشتهر بشعر الفروسية، وهو صاحب معلقة من معلقات العرب السبع حسب كتاب الزوزني[1]، ومطلعها:

هلْ غادرَ الشُّعراءُ منْ متردَّمِ أم هلْ عرفتَ الدارَ بعدَ توهـمِ

يـا دارَ عَبلَةَ بِالجَـواءِ تَكَلَّمـي وَعَمي صَباحاً دارَ عَبلَةَ وَاسلَمي

(١) أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن الحسين الزوزني وهو كاتب ولغوي ونحوي وفقيه وشاعر فارسي، عاش في القرن الخامس الهجري، واشتهر بكتابه «شرح المعلقات السبع».

وهو أشهر فرسان العرب، من قبيلة شداد العربية، قضى عمره يطلب حريته لنسبه لأبيه شداد أحد أسياد قومه، وقد تيمه عشقه لابنة عمه «عبلة بنت مالك»، ومات عن عمر يناهز التسعين، ويذكر في بعض المراجع أنه شهد آخر معركة قبل موته بأيام، وهي معركة «ذي قار» وهي المعركة الأولى التي ينتصف فيها العرب من العجم، وقد استنصروا بالنبي العربي محمد بن عبد الله [1] وهي بين الفرس الساسانيين والعرب.

- ثانياً: قصة الزير سالم أبو ليلى المهلهل: وهو عُدي بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان، لقُّبَ عدي بن ربيعة بألقاب عديدة من أشهرها «الزير» و«المهلهل» وقيل إن اسمه «سالم» ولا يُعرف لهذا الاسم مصدر، والمشهور بين النسابين أن اسمه عُدي، وهو من قبيلة تغلب العربية من قبائل وائل، وأخو وائل بن ربيعة «كليب» والذي قتل «حسان التبع اليماني» بعد أن تسلل إلى قصره ليلاً هو وسالم و«جسّاس» شقيق «الجليلة» خطيبة كليب، فقد كانت «سعاد البسوس» شقيقة التبع اليماني دميمة المنظر تعاني القبح، فحقدت نتيجة مظهرها على كل فتاة جميلة، وأصبحت تزوج الجميلات إلى أخيها التبع، وتحولهن إلى خادمات ووصيفات لها، وعندما سمعت بجمال الجليلة أقنعت التبع بطلبها من والدها «مرّة بن نزار» وكانت الخطة أن يُقتل التبع في مخدعه بالخديعة لعدم قدرة قبائل بكر وتغلب على مواجهة الجيش اليمني، وفعلاً تسلل الرجال ليلة الزفاف وقتلوا التبع، وأصبح وائل ملكاً على العرب، وتابعت البسوس انتقامها

---

(١) الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني.

بإيغار قلب جسّاس على كليب حتى قتله غيلة بعد أن قتل كليب ناقة البسوس عندما دخلت حديقة قصره، فلحقه في «وادي الحصى» ويُقال إن هذا الوادي يقع في المنطقة الجبلية بين سوريا والأردن «جبل العرب» وهو حالياً على الحدود السياسية لهذه المنطقة وفي قرية «المشقوق»[1] وأن كليباً بدأ ببناء سور لمملكته، وما يزال هناك جبل يحمل اسمه في جبل العرب، يحضن أول آثار بناء السور وهو «تل كليب» أو بالتسمية الشعبية «تل قليب» في قرية «الكفر» وتسلّم جسّاس الحكم بعد أن خاض مع الزير معارك دموية ثأراً للملك المقتول عملاً بوصية كليب لأخيه، وترد الوصية بأبيات عامية أو بلهجة محكية، وفيها خلط غريب لمن يسمعها، فيعتقد أن كاتبها كان مسلماً، مع العلم أن قصة الزير وحرب البسوس كانت قبل الرسالة الإسلامية المباركة، ولكن هذا من الراوي الذي كان بالأصل مسلماً، فدوّن الأبيات في السيرة الشعبية على أساس دينه، والأبيات الكاملة كما رودت في كتاب السيرة وفي أكثر من مرجع تاريخي هي كالتالي:

يقول كليب من سـادة ربيعـة ... ودمعي فـوق خـدّي كالقنـاه

جفاني الدهر خـلّاني سقيمـا ... فهـذا الدهـر كم مثلي فنـاه

خَرجتُ أنا علـى مهري أسـيرُ ... فليسَ بيدي أنا سـوى العصاه

فـهذا ابن مـرة جـاءَ خلفـي ... يريدُ قتلـي وإبليـسٍ طغـاه

---

(١) وتذكر باسم «أم الشقوق» لكثرة شقوقها الصخرية، وهذا في معجم البلدان وهو موسوعة شهيرة للأديب والشاعر الشيخ الإمام شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي المشهور بـ ياقوت الحموي.

ضربتهُ بعصـــاتي فـــوقِ ظهرهُ تِقَنطـــر راح من فوقِ الوطـــاه

أتى مـــن خلفـــهِ عبـــدٌ غريبٌ سريعـــاً أركبه ووقـــف حـــداه

فاستعد وجاني في حالٍ وسرعه ونـارٍ بالحشـــا زادت لُظـــاه

قلّي دير وجهـــك يـــا بن عمي يريـــدُ الغـــدرَ منـي بالقفـــاه

فأحـكم طعنتهُ فينـــا سريعـــاً وراح جسّـــاس هـــارب بالفـــلاه

هديتِ لك هـــدية يـــا مُهلهـــل عشـــر أبيـــات تفهمها الذُكـــاه

أول بيت أقـــولـــه أستغفر الله إلـه العـــرش لا يُعبد ســـواه

وثانـــي بيت أقـــول الملك لله بســـط الأرض ورفـــع السماء

وثـــالث بيت وصيتي بالـــيتامى واحفـــظ العهد ولا تـــذكر ســـواه

ورابـــع بيت أقـــول الله أكبـــر علـــى الغـــدار لا تنســـى أذاه

وخامـــس بيت جسّاسٍ غدرني شـــوف الجـــرح يَعطيكَ النباه

وســـادس بيت قُلت الزير خيي شـــديد البأس قهّـــار العـداه

وسابع بيت ســـالم كـونِ رجال لأخـــذ الثـــأر لا تُعطي ونـــاه

وثـــامن بيت بالـــك لا تخلي لا شيـــخ كبـــير ولا فتـــاه

وتاســـع بيت بالك لا تصـــالح وأن صـــالحت شكـــوتك للإلـه

وعاشر بيت أن خـــالفت قـــولي أنا وياك إلى قـــاضي القضـــاه

وفي إحدى المعارك وقع الزير، وفقد ذاكرته فخبأته أخته «أسماء» زوجة «همام بن مرة» أخو جسّاس عن الأعين، وعاش عند زعيم قبيلة على ضفاف طبرية فاقداً ذاكرته، وغاب عشرة أعوام، وبعد عودة الذاكرة إليه عاد واستأنف القتال، واستمرت هذه الحرب أربعين عاماً، وهي معروفة بـ «حرب البسوس»، ومن أشعار الزير في رثاء أخيه كليب:

دَعَـوْتُكَ يَا كُلَيْبُ فَلَمْ تُجِبْنِي ... وَكيفَ يجيبني البلدُ القفـارُ

أجبني يـا كليبُ خـلاكَ ذمٌّ ... ضنيناتُ النفوسِ لها مزارُ

أجبني يـا كليبُ خـلاكَ ذمٌّ ... لقدْ فجـعتْ بفارسها نزارُ

سقاكَ الغيثُ إنكَ كنت غيثاً ... ويُسْراً حِينَ يُلْتَمَسُ الْيَسَارُ

وهذه الأبيات ليست كغيرها في السيرة الشعبية، فهي أبيات شعر عربية أصيلة موجودة في كتاب السيرة أيضاً لتوفرها في الأدب العربي الجاهلي، أما أبيات كليب فغير موجودة بالأصل، لذلك وضعها الراوي بأسلوبه المحكي، ليساير مُناخ السرد الشعري، وليردم الهوة الفارغة في الحدث الأهم، وهو قتل كليب بن ربيعة.

. ثالثاً: قصة أبو زيد الهلالي وتغريبة بني هلال: وهو سلامة بن رزق بن نائل من بني شعيثة بن الهزم بن رؤيبة بن عبد الله بن هلال بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان الهلالي العامري الهوازني، ويُقال اسمه «بركات» وهو بطل سيرة بني هلال، وقد

صوّرت هذه الملحمة وقائع العرب في الفترة من منتصف القرن الرابع الهجري حتى منتصف القرن الخامس الهجري إبان عصر الدولة الفاطمية، وعلى الرغم من شهرته فيها لم يكن أبو زيد الهلالي محور هذه الملحمة، وإنما هو واحد من أربعة انتهت إليهم الرئاسة في القبيلة وهم:

١ ـ حسن بن سرحان.

٢ ـ ذياب بن غانم.

٣ ـ القاضي بدير بن فايد.

٤ ـ أبو زيد سلامة بن رزق.

وهي توثيق لحياة العرب البدو الرحل، وبيان خطوط الهجرة من الجزيرة العربية إلى مختلف بلدان العرب «بمنطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا» وذلك بحثاً عن المرعى والمياه، بعد أن أصاب أرض «نجد» معقل بني هلال القحط والجفاف، وأيضاً كيفية توأمة الثقافات والعادات بين القبائل العربية المختلفة، وتبدأ هذه السيرة ببيان المجتمع القبلي في الجزيرة العربية عن طريق قبيلة بني هلال، ومنهم نسل «عبد المولى» الذي يقال عنهم إنهم كانوا يمتلكون «قصر عابدين» ولكن تشردوا في الفترات السابقة ودخول الكثير من الغزاة إلى مصر، وأكثرهم ذهب إلى شبه الجزيرة العربية، ومنهم من يقيم في الصعيد المصري إلى الآن، وعندما جفّت شبه الجزيرة العربية ونجد كما ذكرنا كان أبو زيد الهلالي موجوداً يحث قومه على أن يتغلبوا على الهلاك القادم

بالاستعداد للرحيل، ولكنهم كعادتهم لم يستمعوا له، فخرج يبحث عن مكانٍ ليقيموا فيه ومعه أصدقاؤه، فجاب بلداناً عديدة منها فلسطين، حتى وصل تونس مروراً بأرض الكنانة وقتلوا «الزيناتي خليفة» حاكم تونس الخضراء، وحكموها، وتؤكد السيرة أن من قام بقتل الخليفة هو «ذياب بن غانم».

ـ رابعاً: قصة سيف بن ذي يزن: وهو سيف بن ذي يزن بن ذي أصبح بن مالك بن زيد بن سهل بن عمرو بن قيس بن معاوية بن جشم بن عبد شمس بن وائل بن الغوث بن قطن بن عريب بن زهير بن أيمن بن الهميسع بن العرنجج وهو حمير بن سبأ. وهو أحد ملوك اليمن القدماء، وفي بعض القصص قيل إن اسمه هو «معد يكرب بن أبي مرة» وقد عُرف أبوه «بأبي مرة الفياض» وكان من أشراف حمير وأذواء وأقيال حِمير.

تقول القصة إن الملك سيف بن ذي يزن ارتدى لباساً غير بشري من صنع الجان، فأمه إحدى ملكات الجن، وله أخت منهن أيضاً، وتتابع السيرة عن زوجة سيف «منية النفوس» وكيف اختطفها الأحباش واستعادها سيف منهم بجدارة، وتجعله السيرة موحداً مسلماً على دين إبراهيم الخليل عليه السلام، وتجعل من الأحباش وثنيين يعبدون الكواكب والنجوم ـ رغم أنهم نصرانيون. وفي السيرة بنية قومية واضحة، حيث أنه كان ملكاً متوجاً على الإنس والجن، وتشير السيرة إلى اختفاء سيف في آخر أيامه ليلحق بأمه في عالمها، امتدت تأثيرات هذه السيرة على امتداد العالم الإسلامي، فدخلت الأدب الأجنبي وأثرت في الأدب القصصي في تلك البلاد مع السير العربية الأخرى، ويعود لابن ذي يزن الفضل في

طرد الأحباش من اليمن بعد أن ظلوا يحكمونه منذ عهد ذي نواس أوائل القرن السادس، والتمس العون في بادئ الأمر من الروم لعدم قدرته على محاربة الأحباش وحده، حيث زار أنطاكية - سوريا التي كانت مقر الملك البيزنطي حينها، وطلب من القيصر أن يخرج الأحباش، ويجعل بلاد اليمن تابعة للروم، إلا أن ملك الروم رده متذرعاً بأن الأحباش نصارى مثل الروم، رغم أنهم ذكروا في نفس السيرة بالوثنيين، فتوجه إلى الحيرة وقابل «عمرو بن هند» عامل فارس على الحيرة وما يليها من أرض العرب، فأخذه النعمان إلى كسرى «أنوشروان» ملك فارس، فقبل كسرى طلبه وأرسل معه نحو ٨٠٠ سجين أخلى سبيلهم من سجونه، وأمّر عليهم أحد قادته يسمى «وهرز» وحملتهم ثماني سفن، وصلت منها ست إلى ساحل عدن، وانضم إليهم الكثير من العرب، وكان يقود الأحباش «مسروق بن أبرهة» وكان الأخ غير الشقيق له من جهة الأم، وانتصر سيف بن ذي يزن ووهرز على الأحباش في معركة «حضرموت» سنة ٥٧٠ ميلادية، وقد ألحقت اليمن ببلاد فارس، وعُيّن سيف بن ذي يزن ملكاً على اليمن، على أن يدفع خراجاً في كل عام، وكانت غمدان مقراً لحكمه.

- خامساً: قصة الظاهر بيبرس: وهو ركن الدين بيبرس العلائي البُنْدُقْداري الصالحي النجمي لقب بـ «أبي الفتوح» سلطان مصر والشام ورابع سلاطين الدولة المملوكية ومؤسسها الحقيقي، تذكر أغلب المصادر العربية والمملوكية الأصلية أنه تركي من القبجاق «كازاخستان» وبيبرس اسم تركي مؤلف من «بي» أي أمير و«برس» أي فهد، وبعض الباحثين المسلمين في العصر الحديث يشيرون إلى أن مؤرخي العصر المملوكي من عرب ومماليك كانوا يعتبرون الشركس من الترك، وذكر «المقريزي» أنه

وصل حماة مع تاجر، وبيع إلى الملك «المنصور محمد» حاكم حماة، لكنه لم يعجبه لرشقة في عينه اعتبرها نذير شؤم «الماء البيضاء» فأرجعه، وذهب التاجر به إلى سوق الرقيق بدمشق وباعه هناك بـ ٨٠٠ درهم، لكن الذي اشتراه أرجعه للتاجر لنفس السبب، فاشتراه الأمير «علاء الدين أيدكين البندقداري» صاحب الخانقاه في بركة الفيل بالسيدة زينب، ثم انتقل بعد مصادرة ممتلكات سيده علاء الدين أيدكين إلى خدمة السلطان الأيوبي «الملك الصالح نجم الدين أيوب» في القاهرة، وبعد أن برزت قدراته الفنية في القتال أعتقه الملك الصالح ومنحه الإمارة، فصار أميراً ومدرباً للجيش مع أركان الحكم الأربعة «سيف الدين قطز، فارس الدين أقطاي، عز الدين أيبك، شجر الدر» التي كانت هي الأخيرة الوصيفة الأولى في القصر وبمثابة الزوجة للناصر «نجم الدين أيوب» وعندما مات تسلّمت حكم مصر ثمانين يوماً بدعم المجلس الرباعي، ومنهم بيبرس الذي انضم لهم بعد تزكيته من قبل «قطز» فقامت شجر الدر بالتنحي وتعيين عز الدين أيبك أتابكاً للدولة والزواج منه، كان بيبرس ضخماً طويلاً ذا شخصية قوية، وصوته جهوري وعيناه زرقاوان، ويوجد بإحدى عينيه نقطة بيضاء، وقد يكون سبب زرقة عينيه أن أصله كان مختلطاً، وكان شعاره «الأسد» وقد نقش صورته على الدراهم، فبعد أن بدأ مملوكاً يُباع في أسواق بغداد والشام انتهى به الأمر كأحد أعظم السلاطين في العصر الإسلامي الوسيط، بعد وصوله للحكم لقب نفسه «الملك الظاهر» ولد بيبرس نحو عام ٦٢٠ هجري - ١٢٢٣ ميلادي وكانت حياته مميزة بالانتصارات على الصليبيين والمغول من معركة المنصورة سنة ١٢٥٠ ميلادي إلى معركة عين جالوت ١٢٦٠ ميلادي انتهاءً بمعركة

الأبلستين ضد المغول سنة ١٢٧٧ ميلادي، وقد قضى في أثناء حكمه على عصابة «الحشاشين» وبسط نفوذه أيضاً على إمارة أنطاكية الصليبية.

حَكَم الظاهر بيبرس مصر بعد رجوعه من معركة عين جالوت ومقتل السلطان «سيف الدين قطز» على يد أحد جنوده سنة ١٢٦٠ ميلادية، حيث خُطب له بالمساجد يوم الجمعة ٦ ذي الحجة ٦٥٨ هجري / ١١ تشرين الثاني ١٢٦٠ ميلادي وتوفي يوم الخميس ٢٧ محرم ٦٧٦ هجري ٢ أيار ١٢٧٧ ميلادي عن عمر يناهز ٥٤ عاماً بعد رجوعه من معركة الأبلستين متأثراً بالسم، وتسلّم بعده نائبه المنصور «سيف الدين قلاوون» ويعتبر آخر الملوك الأقوياء في الدولة الأيوبية والمملوكية، أحيا بيبرس خلال حكمه الخلافة العباسية في القاهرة بعد ما قضى عليها «هولاكو المغولي» في بغداد، وأنشأ نظُماً إداريةً جديدة في الدولة، منها البريد ونظام العسس، واشتهر بذكائه العسكري والدبلوماسي، وكان له الدور الكبير في تغيير الخريطة السياسية والعسكرية في منطقة البحر المتوسط.

هذه القصص الخمس هي المكوّن الرئيسي للسيرة الشعبية، وكما لاحظنا أن هناك الكثير من التضارب في الأحداث والتواريخ والأسماء، وهذا نتيجة انتشار السيرة وتواترها بين الشعوب في مختلف البلدان، وقد بنيت أغلبها على فكرة خارقة أو حدث فوق طبيعي، وهذا يدل على وجود روح الأسطورة في هذه السير رغم ارتكازها على شخصيات وأحداث حقيقية، ولكن البعد الخرافي أخذ يوسّع ساحة الشخوص والأحداث.

لقد كانت الأسطورة القديمة تعتمد على الطقس القداسي والطاعة

لألهة متعددة خارقة، دخلت أيضاً فيها أحداث حقيقية واصطبغت بصبغة الأسطورة نفسها، ومنها الملحمة الخالدة «الإلياذة والأوديسة» للشاعر «هوميروس» مدوّنة الحرب الطاحنة بين أثينا وطروادة التي استمرت عشر سنوات، وأعتقد قدماء اليونان بمصداقية الأحداث المروية عن الحرب، وقد تم تقدير وقت حدوثها بين القرنين الثالث عشر والثاني عشر قبل الميلاد، إلا أن العلماء لا يؤكدون صحة هذه الحرب، رغم أنه في عام ١٨٧٠ قام المنقّب والمستكشف الألماني «هنريك شيلمان» باكتشاف آثار مدينة في منطقة الأناضول في الموقع الذي كان يقول إن طروادة موجودة تحته، وأيده بعض علماء الآثار بهذا الاكتشاف، إلا أنه لم يتم تأكيد أو نفي صحة الأسطورة ووجود الحرب، وبعد تصوير الموقع عن طريق الأقمار الصناعية وجدت مدينة أكبر من السابقة محاطة بخندق دفاعي حربي، وباستخدام المخطوطات القديمة توصل العلماء إلى أن حرباً وقعت في عهد الحيثين الذين كانوا من حلفائهم، بدليل عثورهم على نفق كان يستخدم لإيصال الإمدادات إلى طروادة المحاصرة، وأمّا السبب التاريخي من وراء تلك الحرب، فيظن العلماء أنه الطمع في كنوز طروادة، لا كما ذكرت الأسطورة اختطاف «باريس» لزوجة ملك أثينا، هذا كله يجعلنا نعرف أن البدايات الأسطورية لم تكن سوى فكرة أولى لبناء تاريخ قديم للشعوب الحاضرة، وهذا التاريخ هو الجدار الذي سيحمي هذه الشعوب القليلة أو البدائية من ألغاز الطبيعة وأهمها «الموت والولادة» والحماية من الفوضى المشاعية بعد أن تغير النظام البنيوي للقبيلة من الصيد إلى الاستقرار الزراعي الرعوي، ولسيطرة المجموعة القليلة على الأكثرية بسلطة مطلقة وطاعة عمياء خوفاً من العقاب المخفي

والغضب الذي كان يصوره العرافون بأنه البرق أو الرعد أو الزلازل.

وتطورت البنية الفنية للأسطورة بعد أن أخذت تسري بين النفوس بسلاسة وتأخذ القبول منهم باعتبار أن تجارب العقل الجمعية لا تحمل أداة النقاش الأساسية وهي المنطق، فقد كانت كل التجارب لا تتعدى الأمور العادية اليومية، ومع تطور المؤسسة الكهنوتية التي بدأت تأخذ الوجه المعروف من الحكم العام بدأت الأسطورة تدخل في قالب من الصياغة البراقة، لتكتمل أركانها وبنودها وتأخذ حجمها الطبيعي في الثقافة النامية حينها، ومع تطور الحضارة المدنية لدى الشعوب القديمة أصبحت الأسطورة بشكلها المعروف المكتمل، تتبعها المعابد والأتباع والكهان والعرافون والشامانات والطقوس الدينية.

تُصنف الأساطير حسب ماهيتها ومحورها إلى عدة أصناف أساسية، وهي في أغلب الأحيان تكون:

- أساطير الخلق والتكوين مثل أسطورة التكوين البابلية «الأيوناماإيليش» والسومرية والمصرية.

- أساطير الحروب مثل حرب طروادة.

- أساطير العقاب والثواب مثل أسطورة بروموثيوس وأسطورة سيزيف وأسطورة جلجامش.

- وأساطير الحب والجمال مثل أسطورة أدونيس وغيرها.

إضافة إلى الأساطير المتعلقة بتخليد الأبطال، والدليل الأهم هو

هرقل البطل الأسطوري اليوناني العريق.

ولسهولة الدراسة الميثولوجية حول التطور الأسطوري لدى الشعوب كان لا بدّ لنا من تقسيم الفكر الجمعي وطبيعة الوعي العقلي في هذه المجتمعات التي تُعد رضيعة في ميزان التطور الأنثروبولوجي، وقبل هذا التقسيم وجب علينا طرح فكرة عن البعد الماورائي المُتحكم في العلائق الواضحة بين الإنسان وبيئته التي كانت بالنسبة له سراً غامضاً، يخوض غماره ودهاليزه المعتمة، فقدمنا بعضاً من الأساطير القديمة التي ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بالأمور الطبيعية التي تتجاوز سلطة الإنسان وقدرته، وفي العنوان التالي سنقوم بالدراسة النفسية للأسطورة وحالتها الفكرية اللاواعية ضمن تطورها عبر العصور السابقة.

علمُ النَّفسِ الأسطوريّ

لقد كانت للأسطورة عند علماء النفس مكانة خاصة جداً، فقد قال «سيغموند فرويد»: إن لها ارتباطاً وثيقاً باللاشعور، وإنها تعبير غريزي عن الرغبات المكبوتة، وهي تظهر إلى الوجود عندما تُتاح لها الشروط المناسبة.

وقد يكون هذا الاستنتاج صحيحاً بشكل شبه كامل، فالأسطورة هي دافع داخلي تُبرر بهذا الشكل، ولكنها في بعض الأحيان تكون أداة سلطوية لإخضاع المجتمع لقوانين ثابتة، ويعتقد فرويد أيضاً أن الأسطورة ترتبط بالنفسية الطفولية للإنسان، ويخالف «كارل يونغ»[1] أستاذه وصديقه الرأي في أغلب طروحاته، مع العلم أنه كان من المفترض أن يكون المدافع الأول عن نظريات فرويد في إعزاء الخلل النفسي إلى النشاط الجنسي المكبوت، ولكنه وافقه في عدة نقاط أساسية في دراسة التحليل النفسي للشخصية، وهي أن الهيستيريا والوسواس يمثلان إحلالاً شاذاً للطاقة

(١) كارل يوستاف يونغ Carl Jung ١٨٧٥ – ١٩٦١ هو عالم نفس سويسري، ومؤسس علم النفس التحليلي جنباً إلى جنب مع فرويد.

الجنسية الليبيدو، ولكن الحالات الذهنية مثل الفصام في الشخصية أو «الشيزوفرنيا» لا يمكن تفسيرها على ضوء الاضطرابات والطبيعة الجنسية، وذلك لأن مرضى حالات العته المبكر يفقدون الصلة تماماً، وبالتالي التجاهل التام للوظيفة الجنسية النشيطة، ولكن يونغ أكد رمزية الأسطورة وارتباطها باللاشعور الناضج في حياة الإنسان النفسية وباللاوعي الجماعي، فالأسطورة في رأي يونغ تتألف من صور أصيلة ترمز إلى الحكمة والنضج، وتنبع من دوافع نفسية ثابتة تتكرر في حياة الإنسان وتحضّهُ على التفكير في الكائن الأعلى، وفي نزوح الإنسان إلى الخلود، وهو يؤكد دور الأسطورة في الأدب والفن، ويسلط الأضواء على العلاقة الوثيقة بين علم النفس والفن والأدب، ويرى أن لجوء الأديب والفنان إلى عالم الأساطير يمنح تجربتهما قوة التعبير، ويماثل الأساطير بالتاريخ الذي يستقي الكاتب منه شخصياته، كما أن الأنماط والصور الأسطورية نفسها ليست إلا نتاج خيال مُبدع يحتاج إلى ترجمة لغوية، ويثير يونغ بذلك مسألة توسط اللغة بين الأدب والأسطورة، وكل ظاهرة أسطورية في رأيه هي ظاهرة ثقافية تنحو نحو المثالية، ولا يكون لها معنى إلا إذا كانت لها منفعة دينية.

أما الفيلسوف وعالم الاجتماع الفرنسي «لوسيان ليفي برول» فيقول في كتابه «العقلية البدائية» نظرية جديدة عن أصل الأسطورة، وهو يعزوها إلى التفكير البدائي السابق للمنطق، ويرى أن هذا التفكير يرتكز على ما يُعرف من ظواهر لم يجد لها تفسيراً منطقياً، إضافة

إلى السحر والشعوذة حسب نظرية «فريزر»[1] وقد لاقت هذه النظرية قبولاً واسعاً من علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا وغيرهم، ويرى العالم الروماني «مرسيا إلياد»[2] أن الأسطورة حدث ديني يروي قصة مقدسة وأحداثاً جرت في الزمن الأول، وهي تصف مختلف الانحرافات الدرامية لكل ما هو مُقدّس في العالم، وينفي إلياد عن الأسطورة كل ما هو غير ديني، ويدعو إلى التفريق بين الروايات الصحيحة والروايات المغلوطة في المجتمعات التي ماتزال الأساطير حية عندها، لأن الروايات الصحيحة تحكي كل ما هو مُقدّس وخارق فعلاً، في حين تتحدث الروايات المغلوطة عن أشياء دنيوية وإن كانت شخصياتها مُقدسة، أما الخرافات فتتحدث عن حوادث لم تستطع أن تبدل شيئاً من الطبيعة الإنسانية وإن كان لها تأثيرها في العالم.

ويرى بعض علماء النفس والعقل الآخرين أن ما جاء في الكتاب المقدس «العهد الجديد» هو أسطورة، واعتبر «دافيد شتراوس»[3] أستاذ اللاهوت الألماني أن قصة المسيح من ميلاده الإعجازي وطفولته ومعجزاته وقيامته وصعوده ما هي إلا أسطورة ظهرت بعد صلب المسيح وموته، وهي من خيال التلاميذ وآباء الكنيسة في القرن الثاني الميلادي،

---

(١) جيمس جورج فريزر: عالم الثروبولوجيا إسكتلندي ألف كتابه المشهور والضخم «الغصن الذهبي» عام ١٨٩٠ وهو عبارة عن دراسة في السحر والدين وضح فيه أن كثير من الأساطير الدينية والشعائر الدينية أصلها منذ أيام ظهور الزراعة في عصر ما قبل التاريخ، وان التطور العقلي البشري مر بثلاث مراحل: السحر البدائي، والدين، والعلم.

(٢) كاتب ومؤرخ أديان وفيلسوف وروائي روماني، شغل كرسي أستاذ تاريخ الأديان في جامعة شيكاغو، وله مؤلفات في أدب الخيال وأدب الرحلات والسير الذاتية، وتاريخ الأديان وفلسفة الأديان.

(٣) دافيد شتراوس ١٨٠٨ - ١٨٧٤ أستاذ اللاهوت الألماني، كاتب وثيولوجي ألماني صدم أوروبا المسيحية بتصويره عيسى التاريخي ونفيه طبيعته الإلهية وارتبط عمله بمدرسة «توبنغن» التي أحدثت ثورة في دراسة العهد الجديد والمسيحية المبكرة والأديان القديمة، وبالرغم من الأخطاء في أعماله إلا أنه كان رائداً في التحقيق التاريخ لعيسى.

بقصد إعلاء المسيح وتصويره في صورة «المسيا» الذي تنبأ به العهد القديم، ويرجع نجاح التلاميذ إلى اعتقاد اليهود بالأساطير القديمة.

ولكن مع بعض التحليل البسيط للحدث المسيحي المبارك واستناداً إلى محكم التنزيل الرباني في قوله تعالى:

﴿ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا ﴾[1]

إضافة إلى المعجزات التي صنعها السيد المسيح في رسالته التبشيرية أمام آلاف الناس في أورشليم، وتدوينات تلامذته الأبرار الذين انتشروا في أصقاع الأرض بعده، وتطابق أقوالهم حرفياً.

وبهذه الجولة السريعة بين علماء وأسياد علم النفس الحديث، نستطيع معرفة تاريخ ظهور الأسطورة في علم النفس بشكلها الأسطوري البحت الذي ابتعد في هذه المرحلة المتقدمة من التطور الحضاري عن السلطة الرهبانية والبعد اللاهوتي المقدس، مع الاحتفاظ بمكانتها العريقة في سدة التطور العقلي والحضاري للإنسان على مر العصور، باعتبار أن الأسطورة وليدة تطور الشعوب وانتقالها عبر درجات الرقي الفكري، مع ظهور المفكرين العقليين الأوائل الذين هدموا السطوة اللاواعية للحكم الميتافيزيقي بوضعهم أسس المنطق والعقل، حيث

---

(١) سورة مريم / الآية ٢٠، ٢١.

وضع «أفلاطون» في كتابه «الجمهورية» أهم نظرياته، بل أهم نظريات الحضارات القديمة، وهي نظرية «الكهف» وهي التي يتحدث فيها أفلاطون هنا على لسان سقراط متحدثاً لأحد أتباعه:

- سقراط: تخيل كائنات بشرية قبعوا في كهف تحت الأرض، له ممر طويل باتجاه النور، ظل هؤلاء الناس هناك منذ نعومة أظفارهم، وقُيدت أرجلهم وأعناقهم بأغلال، بحيث لا يستطيعون التحرك من أماكنهم أو رؤية أي شيء سوى ما يقع أمام أنظارهم، لأن السلاسل منعتهم من إدارة رؤوسهم، وخلفهم نار متأججة من مسافة، وبين النار والسجناء طريق مرتفع، ولتتخيل على طوال هذا الطريق حائطاً منخفضاً، مشابهاً لتلك الحواجز التي يضعها أمامهم لاعبو الدمى المتحركة.

- غلوكون: إنها حقا لصورة عجيبة، تصف نوعاً غريباً من السجناء.

- سقراط: إنهم يشبهوننا، ذلك أولاً لأن السجناء في موقعهم هذا لا يرون من أنفسهم ومن جيرانهم شيئاً غير الظلال التي تلقيها النار على الجدار المواجه لهم، أليس كذلك؟

- غلوكون: وكيف يمكنهم خلاف ذلك ما داموا عاجزين طوال حياتهم عن تحريك رؤوسهم...؟

- سقراط: فلتتأمل الآن ما الذي سيحدث إذا رفعنا عنهم قيودهم وشفيناهم من جهلهم، فلنفرض أننا أطلقنا سراح واحد من هؤلاء السجناء، وأرغمناه على أن ينهض فجأة، ويدير رأسه، ويسير رافعاً عينيه نحو النور، عندئذ سيعاني آلاماً حادة، ويضايقه التوهج، وسوف

يبهر إلى حد يعجز معه على رؤية الأشياء التي كان يرى ظلالها من قبل، فما الذي تظنه سيقول إذا أنبأه أحد بأن ما كان يراه من قبل وهم باطل، وأن رؤيته الآن أدق، لأنه أقرب الى الحقيقة، ومتجه صوب أشياء أكثر حقيقة؟ ولنفرض أننا أريناه مختلف الأشياء التي تمر أمامه، ودفعناه تحت إلحاح أسئلتنا إلى أن يذكر ماهي، ألا تظنه سيشعر بالحيرة، ويعتقد أن الأشياء التي كان يراها من قبل أقرب إلى الحقيقة من تلك التي نريها له الآن؟

- غلوكون: إنها ستبدو أقرب كثيراً إلى الحقيقة.

- سقراط: وإن أرغمناه على أن ينظر إلى نفس الضوء المنبعث من النار، ألا تظن أن عيناه ستؤلمانه، وإنه سيحاول الهرب والعودة إلى الأشياء التي يمكنه رؤيتها بسهولة، والتي يظن أنها أوضح بالفعل من تلك التي نريه إياها الآن؟

- غلوكون: أعتقد ذلك..

- سقراط: فلتتصور أيضاً ماذا يحدث لو عاد صاحبنا واحتل مكانه القديم في الكهف، أن تنطفئ عيناه من الظلمة حين يعود فجأة من الشمس؟ فإذا كان عليه أن يحكم على هذه الظلال من جديد، وأن يناقش السجناء الذين لم يتحرروا من أغلالهم قط، في الوقت الذي تكون عيناه فيه مازالتا معتمتين زائغتين، وقبل أن تعتادا الظلمة، وهو أمر يحتاج إلى بعض الوقت، ألن يسخروا منه ويقولوا إنه لم يصعد إلى أعلى إلّا لكي

يفسد أبصارهم، وإن الصعود أمر لا يستحق منا عناء التفكير فيه؟ فإذا ما حاول أن يحررهم من أغلالهم، ويقودهم إلى أعلى واستطاعوا أن يضعوا أيديهم عليه، ألن يجهزوا عليه بالفعل؟

- غلوكون: أجل بالتأكيد.

وهذه نظرية واقعية طرحها فيلسوف العصور، لتضع لنا فيما بعد قواعد أساسية عن فكرة الأسطورة والحقيقة المتمثلة بالمنطق الذي يحكم الأشياء، ومما لا شك فيه هو روح الثورة على العرف الشعبي والاستسلام للواقع الهش عند أفلاطون، فقد سعى طوال حياته لإثبات نظرياته الجديدة، فإننا نتذكر القول المحير له عندما كان يقنع تلاميذه بوجود إله واحد، وليست آلهة متعددة «هل تشمون رائحة العفن الإلهي؟» وهذا ليقنع الجميع أن الآلهة قد تتعرض للموت والفناء أيضاً، فالكهف هي الحياة الغارقة بعتمة الجهل والسيطرة الماورائية، والنار وظلالها هي الأوهام التي تسيطر على الفكر البشري نتيجة تخوفه من اقتحام مجهولية الطبيعة حوله، كالبراكين والزلازل والأحلام والموت وغيرها من الأمور المرافقة للرهبة والخشوع، وإذا بدأ العقل في بحثه عن الحقيقة فسوف يصدم بنورها كما تصدم عين من كان في الكهف عند رؤية ضوء الشمس، وأعتقد أن الدلالات الباقية واضحة للقارئ العزيز، ويستطيع إسقاطها على الفكرة القائمة.

أيضاً يمكن أن نتجاوز رأينا هنا إلى حد أبعد وأشمل، وهو أن نقول:

- إن النظريات المنطقية التي يجب أن تحكم الأسطورة وتعيدها إلى

قالبها الفكري البحت يجب أن ترتكز على القيمة الأخلاقية في علم المنطق والفلسفة الواقعية، وقد ذكر أرسطو في كتابه «الأخلاق النيقوماخوس»:

«إن كل فن وكل فحص وكذلك كل فعل واستقصاء لا يُقصد به أن يستهدف خيراً ما، ولهذا السبب فقد قيل بحق إن الخير هو ما يهدف إليه الجميع، فما هو إذن الخير في كل واحد منها؟ أليس هو الشيء الذي من أجله يصنع كل الباقي؟

في الطب مثلاً هو الصحة، وفي فن الحركات العسكرية هو الظفر، وهو البيت في فن العمارة، وهو غرض آخر في فن آخر، لكن في كل فعل، وفي كل تصميم أدبي، الخير هو الغاية نفسها التي تبتغى.

وإذا كانت الغائية ظاهرة في الطبيعة فهي في الإنسان أظهر، وتحديداً الأخلاق باعتبارها سلوكاً عملياً، والعمل يتجه بالضرورة إلى تحقيق غاية، ومن ثم أصبح من الطبيعي أن يبدأ بحثه في تحديد غاية الحياة، لأن الغايات متعددة ومترتبة فيما بينها، لكن لابد من التوقف عند حد لتسلسلها، وهي الغاية القصوى التي تحتفظ بقيمة ذاتية، وهي غاية الأفعال جميعاً، هذه الغاية هي من غير شك الخير الأعظم، وإن معرفتها لتهمنا إلى أكبر حد، فعلى معرفة الخير يتوقف توجيه الحياة.»

ولعل «ابن رشد»[1] من أكثر المطبقين لنظريات أرسطو في

---

(١) أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد ٥٢٠ - ٥٩٥ هجري وهو فيلسوف وطبيب وفقيه وقاض وفلكي وفيزيائي عربي أندلسي، نشأ في أسرة من أكثر الأسر وجاهة في الأندلس وقد عرفت بالمذهب المالكي، يعد من أهم فلاسفة الإسلام، دافع عن الفلسفة وسمح للعلماء وفلاسفة سابقين له كابن سينا والفارابي، فهم بعض نظريات أفلاطون وأرسطو، تولى منصب القضاء في إشبيلية ثم في الدولة الموحدي أبي يعقوب يوسف، تعرض ابن رشد في آخر حياته لمحنة، حيث اتهمه علماء الأندلس والمعارضون له بالكفر والإلحاد، ثم أبعده أبو يوسف يعقوب إلى مراكش، وتوفي فيها ١١٩٨ وترجمت أعماله جميعها في عهده إلى أكثر من لغة غربية.

الأخلاق، وقد بني على مؤلفاته الكثير من القضايا التي خدمت تقويم علم الأسطورة في التاريخ الحديث ما بين القرن الثامن عشر والقرن العشرين، حيث انطلق ابن رشد في آرائه الأخلاقية من مدرسة أرسطو وأفلاطون، فقد اتفق مع أفلاطون أن الفضائل الأساسية الأربع هي «الحكمة والعفة والشجاعة والعدالة» وهذه الفضائل كلها توجد من أجل السعادة النظرية والتي هي المعرفة العلمية الفلسفية، وقد قَصَرَ الخلود على عقل البشرية الجمعي الذي يغتني ويتطور من جيل إلى آخر. والخلود كان من البنيات الأساسية المهمة في الأسطورة. وكان لفكره الدور الكبير في تطور الفكر المتحرّر في أوروبا في العصرين الوسيط والحديث، وأكد ابن رشد على أن الفضيلة لا تتم إلا في المجتمع، وشدّد على دور التربية الخلقية، حيث ذكر في كتابه «بداية المجتهد ونهاية المقتصد»:

«فإن غرضي في هذا الكتاب أن أثبت فيه لنفسي على جهة التذكرة من مسائل الأحكام المتفق عليها والمختلف فيها بأدلتها، والتنبيه على نكت الخلاف فيها ما يجري مجرى الأصول والقواعد لما عسى أن يرد على المسائل المنطوق بها في الشرع أو تتعلق بالمنطوق به تعلقاً قريباً، وهي المسائل التي وقع الاتفاق عليها أو اشتهر الخلاف فيها بين الفقهاء الإسلاميين من لدن الصحابة رضي الله عنهم إلى أن فشا التقليد».

ننتقل إلى بعض الأساطير الخلابة في العالم القديم لعرضها كاملة مع نصوصها وتحليلها تحليلاً نفسياً بما يعطينا بُعداً آخر لهذه الأسطورة باعتبارها ملحمة متكاملة، وكانت تحمل الدلالات الحياتية بكل أشكالها.

أسطورةُ أدونَ وعشتروتَ

تعني كلمة أدون باللغة السامية «رب أو سيد» والشخص «أدونيس» هو الإله الشاب في الثالوث الديني المقدس الذي تدور حوله أسطورة البعث والموت والخصب في جبيل «بيبلوس» وفي بعلبك، حيث كان معروفاً أيضاً باسم «تموز» عند البابليين أو «أدونيس» عند اليونانيين والرومان، امتدت عبادته إلى معظم المدن الفينيقية وعُرِفَ بأسماء أخرى فكان «أشمون» في «صيدون» صيدا أو «ملكارت» في صور، وكان معادلاً «أوزوريس» في مصر، وتواترت هذه الأسطورة من قِبل العديد من المؤرخين والرحالة القدامى في تلك الفترات التاريخية وما بعدها، حتى بعد اضمحلال الطقوس القدّاسية له كإله، وقد تمت صياغتها وسبكها في قوالب مختلفة وحسب الآلهة والعادات المحلية في كل دولة أو مدينة.

تدل بعض ترجمات الكتابات على الرقم الفينيقية إلى أن «أدون» كان ابن الإله «إيل» وزوجته الإلهة «عشيرة» حيث كان النظير لهما في الثقافة اليونانية الإله «زيوس» وزوجته الإلهة «هيرا» وقد تجسّدت عشيرة بشكل شجرة، وأنجبت أدون بعد تسعة أشهر، في سواحل بلاد الشام، وهذا يعطينا صلة أساسية بين الأم الكبرى والشجرة وفكرة الحمل والولادة التي كانت ضمن الطقوس المقدسة في عبادة عشتار ونظيراتها

في باقي الحضارات القديمة، وكانت فكرة الثالوث موجودة قبل البعثة التبشيرية للسيد المسيح بمئات السنين إذا لم تكن بالآلاف، أما في قبرص التي كانت تعدُّ حينها أرضاً سورية ونجمة الهلال الخصيب الممتد من السواحل التركية الشمالية إلى ساحل سيناء في أقاصي الجنوب فقد وُجِدَتْ منقوشات أخرى تحكي قصة إله وُلِدَ من ملك الجزيرة وابنته، وبالنسبة للقرطاجيين فإن أدون هو ابن «فينيكس» والحورية «ألفيسيبة» فهو أدونيس في الأساطير اليونانية والرومانية، حيث نجد عدة روايات مماثلة، لكن مع أسماء مختلفة كما ذكرنا قبل بضعة سطور.

ومع ذلك، تتفق كل هذه القصص على أن ولادة أدون «أدونيس» هي نتيجة علاقة بين ملك من شرق البحر الأبيض المتوسط وابنته «العلاقة المحرمة» وهناك نسخة تتحدث عن «ثياز» ملك أشور وابنته «سميرنا» وأخرى تذكر «سينيراس» ملك قبرص وابنته «ميرا» حيث تقول الأسطورة:

كانت «ميرا» معروفة بجمالها الرائع، ترعرعت في منزل والدها الذي بلغ الغرور عنده إلى درجة دفعته ليدّعي أمام البعض من زواره بأن جمال ابنته يتجاوز بهاء عشتروت «أفروديت الإغريقية وفينوس الرومانية» وصل هذا الكلام إلى عشتروت، وغلت مراجل الغيرة في قلبها، فقررت الانتقام من الملك ملهمة لميرا بالوقوع في الحب من والدها، عانت ميرا من هذا الغرام وحاولت الانتحار، لكن إحدى وصيفاتها «هيبوليتوسل» استدركت الوضع ووعدت سيدتها خوفاً عليها بمساعدتها للتقرب من الملك دون أن يدري بأنها ابنته، فجاءت فترة أعياد في المملكة، فتحايلت الخادمة على الملك في ظلام الليالي السوداء، لوضع ميرا في فراشه،

وذلك لعدة ليال، حملت ميرا من والدها الملك، وعندما اكتشف هذا الأخير الحقيقة، سعى رأساً لقتل ابنته، هربت ميرا من الخوف والخجل، وتوسلت الآلهة لإنقاذ حياتها والحفاظ على طفلها، بعد معرفتهم بما حصل ولا سيما بدور الإلهة عشتروت، أشفقت الآلهة على وضع ميرا واستجابوا لطلباتها بتحويلها إلى شجرة، عُرِفَتْ باسم شجرة اللبان المر «البلسم» وفرضوا على عشتروت أن تهتم بالطفل بعد ولادته، لأنها هي كانت وراء هذه القصة، وبعد تسعة أشهر انقسمت الشجرة، وخرج منها أدون وارثاً جمال والدته.

بعد ولادة أدونيس - وحسب الأسطورة الإغريقية - وصلت أفروديت واقتربت من الطفل، فانبهرت بجماله، حينها قررت إخفاءه عن عيون باقي الآلهة، فخبأته في صندوق، وعهدت به إلى «بيرسيفوني» ملكة الجحيم، وطالبتها بأن لا تنظر إلى محتواه، لكن الفضول استولى على الثانية، ففتحت الصندوق ووجدت أدونيس وفوجئت بوسامته، فقررت الاهتمام به ونقلته إلى قصرها، حيث ترعرع وأصبح شاباً جميلاً وفاتناً للغاية، لتقع بعشقه أيضاً، عندما رجعت أفروديت وطالبت باسترجاع هذا الشاب رفضت الملكة التنازل عنه وتسليمه، فتنازعت الإلهتان، غضبت أفروديت وطلبت من كبير الآلهة زيوس بالتدخل، لكن زيوس ليتفادى فتح باب الحرب مع إحدى الإلهتين، طلب من الحورية «كاليوبي» بالحكم عنه بينهن، فقضت الحورية بتجزئة السنة إلى ثلاث فترات، وكان على أدونيس أن يقضي الأشهر الأربعة الأولى مع بيرسيفوني، وأربعة مع أفروديت، أما الثلث الأخير فيفعل ما يشاء ويقضيه أين شاء، نفذ أدونيس هذا الحكم، لكنه قرر قضاء وقت فراغه مع أفروديت.

كان أدونيس يحب الصيد، فقضى الكثير من الوقت لممارسة هوايته عندما كان بصحبة أفروديت، وغالباً ما تعمّدت الإلهة مرافقته خوفاً عليه ولحمايته أيضاً، وخلال إحدى هذه الرحلات في منطقة «أفقا» بالقرب من مدينة جبيل «بيبلوس» خرج أدونيس من دون مرافقة أفروديت «عشتروت» التي كانت متجهة نحو قبرص، ووقع على خنزير بري فأصابه بأحد رماحه من دون أن يقضي عليه، فهجم الخنزير بشراسة على أدونيس وجرحه جرحاً عميقاً في قدمه، إذ عانى أدونيس من جراحه، ووصل صوت أنينه إلى أذن عشيقته أفروديت، فسارعت بالعودة إلى جانب عشيقها، وحاولت إنقاذه دون جدوى، سالت دماء أدونيس على الأرض، واندمجت مع دموع الإلهة، فانبثقت زهرة حمراء من التراب وهي «الشُقار الإكليلي» وسُميَتْ من بعدها بشقائق النعمان[1] واستمر اندفاق دمه نحو النهر القريب الذي صُبِغَتْ مياهه باللون الأحمر حتى مصبه في البحر المتوسط، فعُرِفَ النهر منذ ذلك الحين «بنهر أدونيس» وجَرَت التقاليد بإقامة طقوس دينية تذكارية لهذه الحادثة في كل بداية ربيع من خلال تنظيم احتفالات كبيرة «الأدونيسيات».

يمكن أن يكون موت الإله أدونيس مجرد حادث صيد، لكن الروي القصصي يختلف حسب مصادر أخرى كانت وراء هذا الفعل والاختلاف، وهناك بعض الروايات المتعلقة بهذه الحادثة تقول: إن «آريس» إله الحرب وأحد عشاق أفروديت التي هجرته، وقضت وقتها بين أحضان أدونيس الشاب عشيقها المحبوب تحول إلى خنزير بري وتعمّد مهاجمة أدونيس.

---

(١) نسبة لملك الحيرة «النعمان بن المنذر» الذي داسته الفيلة بعد رفضه تقديم بناته كجواري لـ«كسرى أبرويز» فكانت معركة ذي قار بقيادة الشيخ «هاني بن مسعود الشيباني» فثبتت هذه الزهرة على قبره، وعُرفت في الأدب العربي بهذا الاسم.

وتقول أخرى: إن «أبولو» سعى للانتقام من أفروديت بعد أن أفقدت ابنه «هريمانتوس» البصر، وهناك تفسير آخر يتصل ببيرسيفوني عقب اختيار أدونيس قضاء المزيد من الوقت مع منافستها أفروديت التي قامت بتشجيع أدونيس ليتخلى عن هذه الهواية الخطرة دون التوصل إلى هذه النهاية المأساوية.

عُرِفَ أدونيس أيضاً عند الرومان والإغريق، حيث كانت عشتروت ـ أفروديت وفينوس، أما بيرسيفوني فكانت «بروزربين» وآريس تحول إلى «مارس»، وزيوس إلى «جوبتير».

تقول الأسطورة عند الرومان:

عندما ولد أدونيس استلمته الحوريات ورَبَّتْه في مغاور من جبال لبنان، بالقرب من منبع النهر الذي يُعْرَف اليوم باسم «نهر أدونيس» أو «نهر إبراهيم» وأصبح أدونيس شاباً باهر الجمال يتعشّق الصيد، وكان يقضي جلَّ وقته في غابات الأرز اللبنانية، إلى يوم رأته الإلهة فينوس، فسحرها بجماله، حيث تقرّبت منه ووقعا في قصة حب جميلة، تركت فينوس كل شيء وتبعت أدونيس في رحلاته، لتُقدّم رحيقها وجسدها لمعشوقها، وأمّنت له الحماية ضد الأخطار في رحلات صيده هذه، فقد ارتبطت قصة موته برحلات صيده، وسببها كان وما يزال متعلقاً بغيرة الآلهة، فكانت «ديانا» إلهة الصيد هي التي وضعت الخنزير البري الشرس على طريق أدونيس للانتقام من فينوس التي كانت وراء وفاة «هيبوليتوس» عشيقها.

وروى آخرون أن مارس إله الحرب وعشيق فينوس قد تحوّل إلى خنزير بري، وهاجم أدونيس وقتله بدافع الغيرة.

انتقل أدونيس إلى عالم الموتى، لتعاني فينوس وتتألم من موته محاولة إحياء عشيقها في الوقت نفسه، وهناك في عالم الموت رأت «بروزربين» ملكة العالم السفلي هذا الشاب الوسيم، فوقعت في حبائل عشقه، ومنعت فينوس من استعادته، طلبت فينوس من جوبيتر رئيس مجمع الآلهة التدخل، فحكم هذا الأخير على أدونيس حسب الروي الإغريقي تجزئة السنة إلى ثلاث مراحل. هذا التقسيم يذكرنا بالمواسم المختلفة ودورة حياة الطبيعة. أربعة أشهر مع بروزربين في الجحيم تمثّل الموت أو فصل الشتاء، والباقي يجسد الحياة وولادة جديدة للطبيعة أو الربيع، ومن ثم الصيف والخريف، وهذا في الطبيعة المتوسطية أو حوض البحر المتوسط، والتي تعتبر متشابهة في دورتها الفصلية السنوية بوجود فصلين أساسيين هما الشتاء والصيف؟

عمّت قصة أدونيس أركان العالم القديم، وتم رسمها عند كل حضارة حسب ما تتوافق معه وتختلف محافظة على جوهرها الأساسي في فكرة الربيع والصيف والخريف والشتاء، ولكنها تجتمع جميعها في جمالها السردي الأسطوري لعلاقتها مع إلهة الحب، ولأنها تمثل الولادة الجديدة للطبيعة، أو البرعم الأول في كل دورة فصلية جديدة، جرى العديد من الاحتفالات الدينية لذكرى أدونيس إذ كانت «الأدونيسيات» كما ذكرنا آنفاً هي الأكثر شهرة، وقد أحيت في جميع المدن الفينيقية

واليونانية وأيضاً عند الرومان والقرطاجيين، لا سيما تلك التي كانت في مدينة جبيل الفينيقية.

التحليلُ النفسيُّ لأسطورةِ أدونَ وعشتروتَ

نبدأ في التحليل النفسي لهذه الأسطورة حسب دراسة الحالة الاجتماعية أو الأعراف السائدة في تلك الحقبة التاريخية من حضارة العالم القديم، فقد كانت فكرة وجود أدونيس بالأصل مبنية على أسس علاقة غير طبيعية وهي علاقة الأب والابنة، وهذه العلاقة ذُكرت في أكثر من موضع في الأساطير القديمة كقصة «هرقل» التي كانت نتيجة نزوة عابرة بين «زيوس» كبير مجمع الآلهة اليونانية وامرأة من البشر، وحتى في بعض رواسب الأديان القديمة، لتدل هذه الواقعة على أن فكرة الإله الخارق أو الشخص المميز والذي كان هو البطل في سيناريو الأسطورة لا يمكن أن يكون بهذا الشكل المفصلي دون خلل في النظم المتعارف عليها، وسنعود إلى بعض الأفكار المطروحة في علم النفس حول هذه العلاقة.

من العقد الأساسية المبني عليها علم النفس الحديث هي «عقدة الكترا» وهي تدور حول العلاقة القائمة على فكرة الإعجاب والقدوة أو المثل بين الفتاة ووالدها، وقلنا قدوة أو مثل، لأن التطور الفيزيولوجي في مرحلة النضج الأولى عند الفتاة لا يرتبط بأي بعد جسدي أو رغبة جنسية قد تتشكل، ومحور هذه العقدة هو تقرّب البنت من أبيها، مما

يدفعها لحمل شعور الغيرة تجاه أمها، لأنها تراها العقبة التي تقف أمامها في طريق الاستحواذ على أبيها، وتحاول جراء الدافع المكبوت من هذه الغيرة اللاواعية أن تمثل الطفلة أمها، وأن تكتسب عاداتها وأفكارها وسلوكياتها، وهنا تأتي أهمية عقدة «الكترا» في تنمية الشخصية الأنثوية ضمن لا وعي الطفلة.

وقد عمل «سيجموند فرويد» الذي انطلق من «عقدة أوديب» على توسيع أفكاره وتطويرها، ليصل إلى هذه الفكرة أو العقدة، إلّا إنّ من أطلق عليها هذه التسمية هو «كارل يونغ» وهو الرجل الذي ربط بين العقل والخرافة عام ١٩١٣ مع أن فرويد رفض التسمية التي أطلقها يونغ والتي استلهمها من أسطورة «الكترا» الإغريقيّة، وهي الأميرة التي طلبت من أخيها أن يثأر لموت أبيها «أغاميمنون» الذي عشقته عشقاً شديداً، وذلك بقتل أمّهما «كليتمنسترا» لأنّها شاركت في قتل زوجها والد إلكترا، وقد رفضها فرويد لأنّها تسعى لتوطيد فكرة التشابه بين سلوك كلا الجنسين، لذلك فإنّ فرويد في جميع كتاباته كان يستخدم تعبير «عقدة أوديب الأنثوية».

وعقدة الكترا التي ذكرناها كانت ذات بعد تطبيقي واقعي ملموس في الحضارة الفرعونية العريقة كمثال، حيث كانت الوراثة الفرعونية والسلطة تعود للفتاة، وهذا ما يدفع الفرعون ليتزوج أخته متابعاً سلطته الحاكمة على البلاد.

وغياب فكرة الأم التي أنجبت طفلها من أبيها وتحويلها إلى شجرة هي حالة من التواصل القدسي في كلا الحدثين، كان الإله

أدونيس هو الشخص الوسيم الذي وقع تحت أهواء النساء الخارقات من أفروديت إلى برسيفوني وغيرهن ممن أكملن القصة والحدث، والشجرة هي الأم الكبرى أو الطبيعة، حيث بدأت حياتها بالإنجاب من والدها الذي أنجبها من صلبه، لتكون واسطة العقد لابنها من رحمها متخذة فيما بعد شكل الشجرة، إذاً مثّلت بالأصل دور بطل من أبطال الأسطورة، وهو الطبيعة وتعاقب الأشهر والفصول، وقدسية الشجرة تظهر بشكلها الملحوظ بأغلب أساطير العالم القديم، ومنها أسطورة أوزيريس الفرعونية، فالشجرة هي الأم الكبرى أو الطبيعة الأم والتي كانت دائماً محركاً أساسياً لسير الأحداث، وقد تنوعت أساطير شجرة الحياة أو الشجرة الأم في أكثر الديانات القديمة، فعند المزدكية «بلاد فارس» كانت أسطورة الشجرة مرتبطة بالمثنوية الكونية، حيث ذُكرت في أساطير بلاد فارس ما قبل الإسلام «شجرة العالم» وهي شجرة ضخمة تحمل كل أنواع البذور، ومن القصص المروية أن «أهريمان» إله الشر خلق ضفدعاً ضخماً مهمته القضاء على الشجرة لمنع نمو بقية الأشجار على الأرض، فقام «أهورامازدا» وهو ندّه إله الخير بوضع سمكتين تحرسان الشجرة، وبهذا تقترب فكرة شجرة العالم الفارسية من فكرة شجرة الحياة نفسها.

وفي أساطير العرب ما قبل الإسلام والمسيحية، بل من أساطير التوراة المدونة ضمن صفحاته والتي اعتبرت بالدليل القاطع أنها قصص وأساطير قديمة، وهي للتوعية والحكمة بقوله تعالى ثناؤه في محكم تنزيله:

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾[1]

حيث نعرف من الأسطورة المرتبطة بالشجرة المقدسة أو شجرة الحياة أن التي طردت آدم وحواء من الجنة هي الشجرة، ليست عملاً أو سلوكاً اقترفه العبد في المعصية، وأيضاً بعد الطرد تابعت الأسطورة سردها لدى ولدي آدم «قابيل وهابيل» حيث كانا يعيشان في جزيرة «سقطرى» فعمد أحد الأخوين وهو «قابيل» لقتل أخيه بعد أن رفض «هابيل» أن يتزوج قابيل من أخته، فسالت أول قطرة دم إنسان على الأرض، لتنبت في نفس المكان الشجرة المعروفة اليوم «شجرة دم الأخوين» أو «شجرة دم التنين» وتُعرف في المصطلح العلمي باسم هو «Our students Sanbara» وهي من أغرب وأجمل الأشجار في العالم النباتي، حيث تتميز بارتفاعها الكبير، وتجمّع سيقانها على شكل مظلة كثيفة.

تمثل شجرة دم الأخوين الحالة الطبيعية للأم الكبرى، لكونها تكررت في أكثر من موضع، ولاستمرار الحياة بعد حالة الموت أو القتل باعتبار الشجرة كائناً حياً، وقدّر علماء البيولوجيا عمر هذه الشجرة على سطح الأرض بنحو ٥٠ مليون سنة، وبفضل عزلة سقطرى القديمة عن قارتي أفريقيا وآسيا، فقد حافظت كثيراً على خصوصية الوسط الجغرافي المدهش بدءاً من العصر الحجري حتى الوقت الراهن، ويُستخرج من لحاء هذه الأشجار الصمغ والقطران، فهو يستعمل كدواء

(١) سورة يوسف الآية ٣

لأمراض الجلد والعيون، كما يستخدم كصباغ لزخرفة القدور الفخارية.

وينتج صنفين من صمغ هذه الشجرة بطريقة قديمة تحدّث عنها «ياقوت الحموي» فالصنف الأول هو صمغ صرف يتم تجميعه ويسمى «إمْزُوْلُوْ» والصنف الثاني عبارة عن صمغ يتم تحضيره يدوياً، حيث يأخذون الصمغ الصافي ويغلونه ويصبّونه في أقراص بعد أن يضيفوا إليه أجزاء كثيرة من لحاء الشجرة، وهذا الصنف يسمى «أيْدَاعْ».

أيضاً ذُكرت في التوراة وبشكل صريح في مواضع أخرى، فإن لشجرة الحياة التوراتية العديد من المفاهيم والاستعمالات، حيث تُعرف باسم «חיימה ווטס - شجرة الحياة» ففي سفر الأمثال ترمز إلى الحكمة والرؤية، أما في سفر الخروج وما بعده فهي شجرة آدم وحواء، وقد طُردا من الجنة بسببها، لتناولهما أثمارها التي تمنح الحياة الأبدية، وكما ذُكر في سفر أخنوخ أنه في يوم القيامة سيقدّم الله ثمرة من شجرة الحياة لكل من ذُكر اسمه في كتاب الحياة.

وفي الثقافة الصينية الأسطورية أيضاً وردت شجرة الحياة أو الشجرة المقدسة، حيث تقول «التاوية» إن شجرة الدرّاق المقدسة تثمر مرة كل ثلاثة آلاف سنة، ومَن يتناول ثمارها يحصل على الخلود الأبدي، ومن اللقيات الأثرية في مدينة «سيشوان» الصينية المذبح الذي يحتوي على ثلاث شجرات برونزية، يلتفُّ على قاعدتهم تنين وعلى رؤوسهم طير أسطوري ذو مخالب طويلة.

ومن هذا، فإن ارتباط الإنسان بالبعث والتجديد هو حالة من

اللاوعي العقلي في تحدي الطبيعة وخوارقها الغامضة آنذاك، فكانت الشجرة هي الرمز الوحيد الموجود في خيارات القدسية، لما فيها من رموز غنية تغني الفراغ في العقل الواعي، فإن حالة الفراغ الواعية قد تأخذ العقل إلى اضطراب متواتر في الجملة العصبية، فيقوم اللاوعي بالدفاع عن خط إدراكه الأول وهو «العقل» بتوجيه الحواس إلى شيء ملموس وموجود، فالشجرة كما ذكرنا بنموها وضخامتها وعريها وكسوتها قد تكون ملاذاً أو مهرباً من فكرة الموت والاندثار أو الغياب، وهذا ما أرسى ركائز عبادة الأسلاف المتمثلة بالثالوث المقدس الأم والأب والابن، الأم هي الحلقة التي تربط بين الأب الذي يتصدّر الحكم والسلطة، والابن الذي سيبني الأسطورة ويتابعها من حيث انتهت الأم بعد أن تحولت إلى شجرة.

ومغامرات أدونيس مع عشيقاته كانت تعبيراً صريحاً عن الرغبة الجنسية التي صبغت الأسطورة بطقس «الجنس القدسي» وهذا في معابد عشتار، فالتوازن الجنسي يجعل من الشخص إيجابياً فعّالاً يسعى نحو التميز والإنتاج الخلّاق، موجهاً الطاقة العصبية في جسده إلى طاقة فكرية حيوية، فالعقل في جانبه الفعّال المخفي يضع على بوابة الإدراك حارساً يمنع خروج الانفعالات والرغبات إلى الحيز المادي، وهذا ما يضخم عملية الكبت التي تبدأ بالتسرب من اللاوعي إلى الشعور المادي عن طريق الأحلام والرؤى المتكررة، ومن ثم إلى التحكم في الحواس المادية الخمس، وهذا ما نسميه في علم النفس «الكبت الجنسي» وإذا قسّمنا الخطوط الدفاعية لدى العقل الباطن نجد أن الحواس الخمس المادية هي الخط الدفاعي الأول، فلا بد من إشباع هذا الجدار كي لا

ينهار فاتحاً الباب إلى الخط الدفاعي الثاني وهو الجملة العصبية التي ستؤدي بخللها إلى أمراض العُصاب وما يتبعها من نتائج، فكانت أساطير البغي والجنس القديمة متّشحة بالطابع القدسي في أعلى الهرم السلطوي . أفروديت . وأسمائها في باقي الأساطير والمدن القديمة، وتحدّثت بعض الشروحات عن عشتار البابلية أنها إلهة الخصب والجمال، فقد تصورت في أكثر من رُقم وتمثال إنها امرأة توحي إلى الخصب والجمال، وكانت هذه الصورة مرسومة في عدّة أمكنة على جدران معابدها التي كانت تُقام فيها الطقوس المقدسة في الأراضي الفينيقية والبابلية بين رهبان المعابد وأتباع عشتار، وقد تجر رغبة عشتار المكان إلى حرب أو جحيم فقط لتلبية ما تريد وهذا ما حدث في أسطورة «جلجامش» أسد مدينة أور البابلية، وأيضاً تكررت هذه الفكرة لدى الإغريق بشخص أفروديت الإلهة الطائشة والتي كانت موجودة فقط لإرضاء رغباتها مع الآلهة أم البشر لا فرق.

في الحالة العقلية ضمن نطاق الإدراك الواعي كانت الدوافع محركةً للسلوك البشري الظاهري، حيث تنقسم الدوافع إلى دوافع أساسية «فطرية» لا يمكن للإنسان العيش بدونها، ودوافع ثانوية قد يتخلص منها الشخص أو من بعضها، وهنا سنتحدث عن الدوافع السلوكية في الشخصية.

تعريف الدافع السلوكي:

هو حالة نشاط داخلية جسمانية أو نفسية، تثير السلوك في ظروف معينة حتى ينتهي إلى غايته ضمن حركة موجهة ظاهرية، والدافع قوة

باطنية لا نلاحظها مباشرة، بل نستنتجها من الاتجاه العام للسلوك الصادر عنها، فإن كان السلوك متجهاً نحو الطعام استنتجنا دافع الجوع، وإن كان متجهاً نحو الشرب استنتجنا دافع العطش، أما إذا كان متجهاً باتجاه الاجتماع بالناس استنتجنا الدافع الاجتماعي.

والدافع اصطلاح عام شامل، فقد نجد كلمات وألفاظا كثيرة تحمل نفس المعنى المقصود به «الدافع» ومنها: الحافز، الباعث، الرغبة، الميل، الحاجة، النزعة، الغرض، القصد، النية، الغاية... مع العلم أن هذه الكلمات في حد ذاتها تحمل معاني متمايزة عن بعضها، فالباعث مثلاً موقف خارجي يستجيب له الدافع، والطعام باعث يستجيب له دافع الجوع، فالدافع قوة سلوكية داخلية والباعث قوة خارجية.

ونذكر هنا أن الحافز هو الوجه المحرك للدافع، وهو حالة الضيق والتوتر الحركي السلوكي التي تُنشّط الكائن البشري عن طريق جملته العصبية الكاملة، ولكنها لا توجه السلوك توجيهاً مناسباً إلّا إذا كان هناك رقيب قوي نسميه «العُرف» أو الأخلاق الاجتماعية أو الضمير، ونتطرق لهذه الفكرة بقولنا:

إن الضمير هو الحالة النامية التراكمية في اللاوعي من المعلومات التي يكتسبها الوعي ويخزّنها في حيز اللاوعي «الباطن» منذ الطفولة، فتتجمع لتبني ما نسميه «الضمير» فمثلاً الكذب أو السرقة هما حالة من المعلومات التي اكتسبها العقل منذ صغره بتوجيه وتنبيه من الأهل، فالطفل الذي اعتاد أن يرى ذويه يقومون بالسرقة لن تتشكل عنده وساوس تأنيب الضمير إذا قام بهذا العمل فيما بعد، وهذا لعدم تخزين

هذه المعلومة في لا وعيه النامي سابقاً، فلن يكون هناك لديه رادع من هذا التصرف، وهذا ما كان يحدث في معابد عشتار الجنسية ضمن الطقوس المتعارف عليها والتي تشكلت في إطار الأسطورة وأصبحت طقساً قُدّاسياً مُعتارفاً عليه، ولكن تحت سلطة الكهنة وإشرافهم، أما الحافز هنا فهو مجرد طاقة داخلية، في حين أن الدافع هو حركة باتجاه سلوكي في اتجاه معين.

في حين أن الرغبة بمعناها الشمولي هي دافع يظهر في شعور يعبر عن ذاته ويدل على غايته وهدفه، أي أنها تُظهر الرغبة بشكل علني مصور على أن هذه الرغبة تُرضي الحاجة لدى صاحبها، كالرغبة في قراءة كتاب معين أو مكالمة إنسان معين، وتتميز الرغبة غالباً باحتوائها صبغة الشوق والولع.

دودة الكتب حرامية

الدوافعُ الفطريّةُ «الأساسيّةُ»

وهي ما كانت تعكس تأثيراتها البيولوجية الجسدية، وهدفها فطري، أو هي ما ينتقل عبر الوراثة، فلا يحتاج الفرد إلى تعلمها واكتسابها، وعادة ما يطلق عليها اسم الدوافع البيولوجية، ذلك لأنها تُعبّر عن حالات فيزيولوجية ناتجة عن وجود حاجات جسمية تُحدث تغيراً في التوازن العضوي والكيميائي، فتنشأ عن ذلك حالة من التوتر، وتدفع الكائن الحي إلى النشاط الذي يؤدي إلى إشباع وإرضاء الحاجة البيولوجية الفيزيولوجية حسب الأعراف أو السلوك المعروف في المحيط الاجتماعي له، وإعادة الجسم إلى حالته السابقة من التوازن، ومن علامات هذه الدوافع نذكر ما يلي:

- ظهورها منذ الولادة، أي قبل أن يستفيد الفرد من الخبرة والتعلم.

- هي عامة مشتركة بين أفراد النوع الواحد جميعاً مهما اختلفت بيئاتهم وحضارتهم، كدافع الأمومة، الجوع، العطش، والدافع الجنسي.

- ثبات هدفها الطبيعي على الرغم من تغيرات السلوك الذي يحقق هذا الهدف.

والدوافع الفطرية هي كل ما يدفع الفرد إلى التماس أهداف طبيعية

موروثة، مغروسة في جهازه العصبي، لذلك تسمى الدوافع الفطرية أحيانا بالغرائز، فمثلاً حب البقاء هو حالة موجودة عند الجنس البشري حتى الطفل الرضيع، فإذا أمسكنا بطفل لم يتجاوز أسبوعه الأول، وقلبناه إلى الأسفل بسرعة فستصدر عنه حركة لا إرادية تؤكد هذه الفكرة «حب البقاء» وهي أنه يقوم بوضع يديه أمامه كما لو أنه يستعد لملاقاة الأرض، وموجودة في الجنس الحيواني، فإذا ولدت ماعز لم تبلغ ساعتين ووضعت على جدار عالٍ فإنها لن تسقط، وستتوازن دون تعليم أو توجيه، وحتى في قانون الطبيعة المادية، فإذا وضعنا قطرة ماء على صفيح ساخن فإنها تتجمع إلى الأعلى لتحافظ على بقائها بعدم ملامسة أكبر قدر من جسمها النار، وقد يكون السلوك الصادر عن الغرائز فطرياً جامداً موحداً في صورته كما هي الحال عند أغلب الحيوانات: بناء العش عند الطيور وادخار الطعام عند النمل، وتصنف هذه الدوافع الفطرية عادة إلى ما يلي:

- دوافع تكفل المحافظة على بقاء الفرد، وتسمى الحاجات العضوية - الفيزيولوجية، كالجوع، والعطش، والنوم.

- دوافع تكفل المحافظة على بقاء النوع، كالدافع الجنسي ودافع الأمومة.

- دوافع الطوارئ وهي دوافع وثيقة الصلة بالمحافظة على بقاء الفرد والنوع، كدافع الهرب ودافع المقاتلة.

وتعتبر دراسة ومعرفة هذه الدوافع الفطرية ولا سيما الحاجات

العضوية من أكثر موضوعات علم النفس أهمية، ذلك ليس فقط لأنها عامة بين جميع أفراد النوع البشري والنوع الحيواني، بل أيضاً لأنها تؤدّي وظيفة بيولوجية مهمة تكمن في بقاء الكائن الحي واستمرار نوعه.

والجدير بالذكر أن من مبادئ المعرفة في علم الفيزيولوجيا أن كل كائن حي ينزع إلى الاحتفاظ بتوازنه من تلقاء نفسه، فإذا حدث ما يخل توازنه الداخلي قام بالأفعال اللازمة لاستعادة توازنه، وقد تكون هذه الأفعال أحياناً عصبية شوكية لا تخضع لسلطة العقل، وهذا ما يُعتبر في علم النفس «خلل التوازن العقلي» فإن لم يفلح وفشل في استرجاع التوازن البيولوجي مرض وهلك، أو بمعنى أدق توجه بالجسم إلى حالة من الانهيار الذاتي الذي قد يبدأ بالاكتئاب، وينتهي أغلب الأحيان بالانتحار.

ويشترك الإنسان مع الحيوان في عدة حاجات عضوية يتوقف بقاؤه وبقاء النوع على إرضائها، ومن هذه الحاجات: الحاجة إلى الطعام والحاجة إلى الماء والحاجة إلى التنفس وهي حاجات يزداد إلحاحها إن لم تُقضَ في الوقت الملائم والمناسب.

وسنحاول فيما يلي تناول بعض هذه الدوافع الفطرية أو الحاجات العضوية الفيزيولوجية التي تتحكم فيها العوامل الكيميائية بقدر كبير، مثل الحاجة إلى الماء أو إلى الطعام، وغالباً ما تُرتب هذه الدوافع الأولية حسب علماء النفس كما يلي:

- دافع الأمومة:

وهو الدافع الذي كان له في الأساطير القديمة والعالم القديم الحيز

الواسع من الفكر والمعنى، فقد كانت الديانات التي تعتمد على الإلهة المؤنثة تُقدّس الأمومة والحالة المرتبطة فيها، لتمثل في أغلب الطقوس الأساس في جو الأسطورة مع غيابها أحياناً في الأناشيد والممارسات، فكانت تُصور «عشتار» أيضاً على شكل امرأة عارية تركب وحوشاً أسطورية، لتجمع بين الجنسين من خلال الجنس الإباحي والإجرام الدموي، وتحكم الشرق الأدنى منذ آلاف السنين، ويُرمز لها بكوكب الزهرة، وأغلب صورها تدل على الأمومة وهي منتصبة عارية، وقد ظهر نهداها بشكل بارز وواضح مع الحلمات الكبيرة المنتصبة الدالة على الحليب أو العطاء، وكان للحليب الذي يخرج من ثدي المرأة أيضاً نصيب في القدسية، حيث ذكرت الأساطير الإغريقية أن الإلهة «هيرا» عندما قامت بإرضاع هرقل الطفل ابن زيوس كان قوياً، فشعرت بألم شديد في صدرها من قوته، ودفعته لتسحب حلمة ثديها من فمه، فانسكب الحليب على الأفق وشكّل مجموعة من النجوم وهي ما تعرف بـ «درب التبانة» أو ما كان يطلق عليها سابقاً «درب اللبن» وأيضاً كانت في العهد القديم والجديد آلهة مختصة بالجنس، فقد ذكر في سفر الرؤيا:

١ ـ ثم جاء واحد من السبعة الملائكة الذين معهم السبعة الجامات، وتكلم معي قائلاً لي: هلم، فأريك دينونة الزانية العظيمة الجالسة على المياه الكثيرة.

٢ ـ التي زنى معها ملوك الأرض، وسكر سكان الأرض من خمر زناها.

٣ ـ فمضى بي بالروح إلى برية، فرأيت امرأة جالسة على وحش قرمزي مملوء أسماء تجديف، له سبعة رؤوس وعشرة قرون.

٤ ـ والمرأة كانت متسربلة بأرجوان وقرمز، ومتحلية بذهب وحجارة كريمة ولؤلؤ، ومعها كأس من ذهب في يدها مملوءة رجاسات ونجاسات زناها.

٥ ـ وعلى جبهتها اسم مكتوب: سر بابل العظيمة أم الزواني ورجاسات الأرض.

٦ ـ ورأيت المرأة سكرى من دم القديسين ومن دم شهداء يسوع، فتعجّبت لمّا رأيتها تعجباً عظيماً.

٧ ـ ثم قال لي الملاك: لماذا تعجبت؟ أنا أقول لك سر المرأة والوحش الحامل لها، الذي له سبعة رؤوس وعشرة قرون.

٨ ـ الوحش الذي رأيت، كان وليس الآن، وهو عتيد أن يصعد من الهاوية، ويمضي إلى الهلاك، وسيتعجب الساكنون على الأرض الذين ليست أسماؤهم مكتوبة في سفر الحياة منذ تأسيس العالم، حينما يرون الوحش أنه كان وليس الآن، مع أنه كائن.

٩ ـ هنا الذهن الذي له حكمة سبعة رؤوس هي سبعة جبال، عليها المرأة جالسة.

١٠ ـ وسبعة ملوك: خمسة سقطوا، وواحد موجود، والآخر لم يأت بعد، ومتى أتى ينبغي أن يبقى قليلاً.

١١ ـ والوحش الذي كان وليس الآن فهو ثامن، وهو من السبعة، ويمضي إلى الهلاك.

١٢ ـ وعشرة القرون التي رأيت هي عشرة ملوك لم يأخذوا مُلكاً بعد، لكنهم يأخذون سلطانهم كملوك ساعة واحدة مع الوحش.

١٣ ـ هؤلاء لهم رأي واحد، ويعطون الوحش قدرتهم وسلطانهم.

١٤ ـ هؤلاء سيحاربون الخروف، والخروف يغلبهم، لأنه رب الأرباب وملك الملوك، والذين معه مدعوون ومختارون ومؤمنون.

١٥ ـ ثم قال لي: المياه التي رأيت حيث الزانية جالسة، هي شعوب وجموع وأمم وألسنة.

١٦ ـ وأما عشرة القرون التي رأيت على الوحش فهؤلاء سيبغضون الزانية، وسيجعلونها خربة وعريانة، ويأكلون لحمها ويحرقونها بالنار.

١٧ ـ لأن الله وضع في قلوبهم أن يصنعوا رأيه، وأن يصنعوا رأياً واحداً، ويعطوا الوحش ملكهم حتى تكمل أقوال الله.

١٨ ـ والمرأة التي رأيت هي المدينة العظيمة التي لها ملك على ملوك الأرض[1].

وكانت غيرة الرجال من الأم العظيمة التي كانت تحمل سراً خالداً من أسرار الحياة، وهو الجنين في أحشائها «الحي من الحي» تدفعهم لاتباع عبادتها بشكل مستمر، وكانت النساء ترد على الغيرة أيضاً بغيرة مشابهة، وهي أن الأعضاء التناسلية الذكرية بارزة لدى الذكور، وهذا ما جعل موضوع التواتر بين الجنسين قائماً على أحقاد مخفية في التصرفات،

(١) الكتاب المقدس - العهد الجديد، رؤيا يوحنا اللاهوتي، الفصل ١٧.

دفع المجتمع والعرف إلى ما يسمى «طقوس البغي المقدس» والتي كانت تعمُّ معابد عشتار البابلية التي أرسلت عشيقها إلى العالم السفلي، فتقوم النساء بجلب شخص عظيم البنية، ويمارسن معه الجنس تحت طقس قداسي، وبعد الانتهاء يقطعن أعضاءه التناسلية لتقديمها لعشار الأم، وغالباً ما كانت تنتهي الطقوس بقتل الرجل نفسه.

وفي المقابل كانت الطقوس الدموية لدى الذكور من عباد زيوس أو هاديس أن يقدموا قرباناً مقدساً للطيور الكاسرة، وهو فتاة بكر جميلة بطقس من الطقوس وتسمى «الذبيحة البشرية» لإرضاء الآلهة، فتأكل الطيور الجارحة جسد الفتاة العذراء العارية.

هذه الممارسات تعكس الدوافع الدفينة لمنشئي الأساطير، للتنفيس عن الرغبات والكوامن النفسية المرتبطة بغريزة البقاء والوجود «الأمومة».

- دافع الجوع:

لا يوجد في الأساطير القديمة عن الطعام ما هو محاط بقالب قدسي أو أسطوري إلّا بعض النثرات عن الأضاحي التي كانت تُقدم من الملوك والحكام والكهنة إلى الآلهة بشكل دوري، وذُكر أيضاً في التوراة ما يدل على تقديم الشواء للرب «يهوه» في أكثر من موضع بين أسفار العهد القديم، وذكرناها في كتاب «معتقدات مظلمة» غير مرة، ولكن هذه الغريزة هي حالة من التطور الفكري الواعي لدى الشعوب القديمة، فقد اعتمدت المجموعات البدائية سابقاً على الصيد في معيشها مثل قطعان

الذئاب. تصيد للأكل. وعندما وعيت الاستقرار من خلال معرفة الأشجار التي تحمل ثماراً صالحة للأكل الآدمي تغير نشاط هذه المجموعات إلى الاستقرار البدائي الأول، فتشكلت بهذا التغير البنية الاجتماعية الأولى، فاستعاضت المجموعات المستقرة عن الهجرة وملاحقة الصيد وقطعان الماشية البرية إلى تتبع الأثمار وتكرار زراعتها تقليداً للطبيعة ورعايتها وتربية بعض الحيوانات، وربما كانت هذه مرحلة الزراعة الحضرية الأولية، ومن هنا بدأت فكرة الطوطم «التحريم» لأجناس من النباتات والحيوانات لبقاء استمرارها في مواسم تكاثرها، ومع مرور الزمن ارتبط هذا التحريم الاقتصادي بحالة من الأسطورة المقدسة عن الصيد والزراعة والثمار، وهناك ما يغني عن ذكره هنا، وهو ذكر قصة الشجرة المقدسة وأدونيس الصياد آنفاً.

- دافع العطش:

يرتبط هذا الدافع مع دافع الجوع ارتباطاً وثيق العرى، حيث يعتبر موضوع الماء هو الموضوع الاستراتيجي الأهم في فكرة الاستقرار والزراعة، وكانت للأنهار والغدران والسواقي آلهتها الخاصة لمنع هدرها أو تلويثها، فعند الإغريق كان إله الأنهار «أسوبوس» القوي الذي كان يبتلع كل من يقترب من الأنهار بضرر، وإله البحار «بوسيدون» المنتقم العنيد الذي كانت له اليد الطولى في الأوديسة حيث ضيّع «أوديسيوس» عشرة أعوام في البحر لخداعه الطرواديين بالحصان الخشبي «حصان طروادة» حتى أن الأمطار ومواسمها كان لها النصيب من القدسية، فعند الفينيقيين كان إله المطر يدعى «بعل» وهو زوج «إنانا» إلهة الخصب،

لذلك عُرف الرجل أو الزوج بمصطلح «البعل» وكان يظهر بعل في دورة الشتاء الفصلية، ولذلك أيضاً أُطلق على الزراعة المعتمدة على المطر الموسمي «زراعة بعلية» حيث كانت تُقام له الطقوس أوائل أيلول، وأحياناً التضحية بفتاة تُقتل وتدفن في الأرض المحروثة، لتسقي دماؤها التربة الجافة، فينتبه بعل أنه تأخر في ري أرض أتباعه، وبطبيعة الحال قامت أكبر الحضارات القديمة على الجداول والأنهار الكبيرة، ومنها حضارة بلاد الرافدين وحضارة الفينيقيين الساحلية على مرتفعات بلاد الشام الجبلية الغربية الغنية بالأنهار والينابيع، وأيضاً الحضارة الفرعونية على امتداد النيل الشمالي.

إن دافع العطش هو الذي جعل الأسطورة تتجه إلى الأولوية في صناعة آلهة خاصة لحماية الموارد المائية، وهذا رد فعل لا واع للحفاظ على البقاء.

. الدافع الجنسي:

وقد قمنا بالتحدث عنه في فقرة «أدونيس وعشتار» وما يدل عليه هذ الدافع وما التوجيهات اللا عقلية التي يقوم بإظهارها، وقد كان في أكثر من مكان في الحضارات القديمة له أبعاد أخرى تدل على أولويته في المعابد الخاصة بربات الخصب، وهناك بعض المؤلفات التي تبيح البغي مبتعدة عن الأخلاق والروادع الاجتماعية».[1]

(١) معتقدات مظلمة. التقود: د. أيوب الحجلي / دار الأيام. الأردن طبعة ٢ / ٢٠١٦. ٢٠١٧، صفحة ٨٧. ٨٨.

الدوافعُ الثانويَةُ «المكتسبةُ»

تعتبر الدوافع المكتسبة ثانوية بوجودها الفعلي، وهذا لعدم تأثر الحالة الفيزيولوجية أو اضطرابها إذا لم تكن موجودة، أو إذا لم يشبعها الفرد في شخصيته، ومن هذه الدوافع:

- دوافع اجتماعية عامة:

وتمثل كل ما يكتسبه الإنسان من معارف ومهارات خلال حياته اليومية واندماجه الاجتماعي ضمن المكان الموجود فيه مهما اختلفت الحضارة التي ينتمي إليها، وهذا يبدو واضحاً في دافع ميل الإنسان إلى العيش في جماعات، وإلى الاختلاط ببني جنسه والاشتراك معهم في أوج نشاطهم الاجتماعي والنفسي والحركي.

حيث إن الإنسان لا يلبث أن يتعلم في أثناء وجوده الاجتماعي الكثير من الدوافع والرغبات الجديدة التي تأتي تحت تأثير العوامل الاجتماعية «التعايش» المتعلقة بالسلوك الاجتماعي للفرد، ومن هنا تجدر الإشارة إلى أن هناك دوافع تتم تنميتها وتدعيمها لدى بعض الحضارات، في حين لا يشجع ظهورها حضارات أخرى، مثل دافع السيطرة ودافع التملك ودافع العنصرية، الأمر الذي يجعل إدراجها ضمن الدوافع الاجتماعية

الحضارية أمراً غير رئيسي، حيث أثبتت البحوث الأنثروبولوجيا ـ التي سنتعرض لدراستها وتعريفها في العنوان القادم ـ والتي اهتمت بدراسة النظم الاجتماعية في أغلب المجتمعات الحية أن هذه الدوافع لا وجود لها في كثير من الشعوب والقبائل البدائية والحديثة، وهذا ما يدفعنا إلى القول:

«إن هذه الدوافع الاجتماعية ليست فطرية مشتركة بين جميع الناس عبر العصور»

الأنثروبولوجيا «علمُ الإنسانِ»

بالإنجليزية Anthropology وهي الدراسة العلمية الشاملة للإنسان، المبنية على المعرفة والعلوم الاجتماعية وعلوم الحياة والعلوم الإنسانية في الماضي والحاضر، وقد أخذت الكلمة من كلمتين يونانيتين هما Anthropo ومعناها «الإنسان» وLogy ومعناها «علم» وعليه فإن المعنى اللفظي لمصطلح الأنثروبولوجيا anthropology هو علمُ الإنسان، وتُعرّف الأنثروبولوجيا تعريفاتٍ عدة، أشهرها:

«علمُ الإنسان - علمُ الإنسان وأعماله وسلوكه - علمُ الجماعات البشرية وسلوكها وإنتاجها - علمُ الإنسان الكائن الطبيعي والاجتماعي والحضاري - علمُ الحضارات والمجتمعات البشرية أي الأنثروبولوجيا الاجتماعية وهي علم الإنسان من حيث كونه كائناً اجتماعياً».

هذهِ التعريفات تعرف باسم «الأنثروبولوجيا العامّة».

وباعتبار أن الأنثروبولوجيا تختص بدراسة النظريات التي تتعلق بطبيعة المُجتمعات البشرية، فإننا نستطيع أن نعدّها من أقدم العلوم الإنسانية، لبدايتها مع الفكر الواعي النابع من التأمل العقلي بعد مرحلة

التركيز الاجتماعي الأول «الحضارات المدينة القديمة» فقد لُقب المؤرخ الإغريقي هيرودوتس[1] «أبو الانثروبولوجيا» إضافة إلى لقبه المعروف «أبو التاريخ» لأنهُ دوّن ووصف بدقة التكوين الجسمي والنفسي الأولي لعدة أقوام قديمة مثل «السيثيين» وقدماء المصريين وغيرهم من الشعوب القديمة، وصوّر أخلاقهم وعاداتهم. كما كتب المؤرخ الروماني «تاكيتس»[2] دراستهُ المشهورة عن القبائل الجرمانية القديمة، حتى أن البابليين قبل «هيرودوتس» بزمن جمعوا في مجمّعات خاصة «متاحف» بعض ما تركهُ السومريون من أدواتٍ ومخلفات قبلهم.

نستطيع اعتبار القرن الثامن عشر نقطة بداية لعلم الأنثروبولوجيا الذي جاءت بعدها العناصر الأساسية المكونة لهذا العلم. حيث كتب «مونتسكيو» في كتابهِ الشهير «روح القوانين» عن المجتمع وأسسه وطبيعته، وأيضاً كتابات «سان سيمون» وزعمه بوجود علم للمجتمع، وآراء «ديفيد هيوم» و«آدم سميث» ونظرتهما إلى المجتمعات باعتبارها تتكون من أنساق طبيعية، واعتقادهما أيضاً بالتطور غير المحدود، وبوجود قوانين لذلكَ التطور، كل تلكَ التأمّلات والآراء حوت بلا شك البذور الصالحة والمكونات الأساسية التي نمت في القرن التاسع عشر، فكونت المدراس الانثروبولوجية الكبيرة، ولا ننكر أبداً قبل هذا كله مؤسس علم الاجتماع

---

(١) وهو مؤرخ إغريقي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد حوالي ٤٨٤ - ٤٢٥ ق.م. اشتهر بالأوصاف التي كتبها للأماكن منذ زارها حول العالم القديم آنذاك، وأناس قابلهم في رحلاته وكتبه العديدة عن السيطرة الفارسية على اليونان. وعرف هيرودوتس بفضل كتابه «تاريخ هيرودوتس» الذي يصف فيه أحوال البلاد والأشخاص التي لاقاها في ترحاله حول حوض البحر المتوسط.

(٢) مؤرخ وخطيب ورجل دولة روماني ١٢٠ - ٥٥ ق. م ولد شمالي إيطاليا في أسرة نبيلة من طبقة الفرسان، ارتقى إلى أوساط الإرستقراطية الأمبراطورية، الذي تعليماً ممتازاً في الخطابة والبلاغة والحقوق ونبغ فيها باكراً. اشتهر بفصاحته ومقدرته الخطابية حتى أن الأديب بلينيوس الأصغر دعاه أعظم خطباء روما في عصره.

الحديث في القرن الرابع عشر الفيلسوف «عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون أبو زيد ولي الدين الحضرمي الإشبيلي» والمعروف بـ «ابن خلدون» وهو مؤرخ من شمال أفريقيا - تونس - ولد فيها عام ١٣٣٨ ميلادي، وعاش في الأندلس، وبعد تخرجه من جامعة الزيتونة تنقّل في مختلف مدن شمال أفريقيا مثل «بسكرة وغرناطة وبجاية وتلمسان» ثم تَوَجّهَ إلى مصر، فاستقبله سلطانها «الظاهر برقوق» الذي أكرمهُ وولّاهُ فيها قضاء المالكية، بقي فيها حوالي ربع قرن حيث تُوُفِّيَ عام ١٤٠٦ عن عمر بلغ ستة وسبعين عاماً، ويعتبر من علماء التاريخ أيضاً، ووضع كتابه الشهير الذي أرسى ركائز علم الاجتماع الذي أخذه مفكرو الغرب بعد هذا بقرون عدة كما ذكرنا، ليصبح علماً قائماً بحد ذاته «مقدمة ابن خلدون».

ويُمكننا أيضاً اعتبار الأنثروبولوجيا علماً حديثاً، وأيضاً أن نعتبرها من أقدم علوم البشر، فالجامعات لم تبدأ بتدريس الأنثروبولوجيا إلا حديثاً جداً، حيث عُيّن السير «إدوارد تايلور» أول أستاذ لها في جامعة أوكسفورد عام ١٨٨٤، والأستاذ «هادن» في جامعة كمبرج عام ١٩٠٠، و«جيمس فريزر» في جامعة ليفربول عام ١٩٠٧، وفي الجامعات الأمريكية في عام ١٨٨٦.

وبعد مُنتصف القرن التاسع عشر بدأت الكتب القديمة في الأنثروبولوجيا بالظهور في أوروبا وأمريكا، وكانَ أهمها كتاب «القانون القديم» تأليف «هنري مين» عام ١٨٦١ وباقي كتبه في نفس الإطار ومنها «المجتمعات القروية في الشرق والغرب» عام ١٨٦١ أيضاً، وكتاب «باخوفن» عن «حق الأم» في نفس العام، وكتاب «المدينة القديمة» للباحث «فوستيل

«وكولانج» ١٨٦٤ وكتاب «الزواج البدائي» للباحث الاجتماعي «ماكلينان» عام ١٨٦٥ وكتاب «السير إدوارد تايلور» المُسمى «أبحاث في التأريخ القديم للجنس البشري» عام ١٨٦٥ بعد تدريسه علم الأنثروبولوجيا بعام، وكتابه الآخر عن «الحضارة البدائية» عام ١٨٧١، ومن بعده كتاب «أنساق روابط الدم والمصاهرة في العائلة الإنسانية» للمؤرخ والباحث «لوس موركن» عام ١٨٧٠.

وبدأت المدارس الاجتماعية بالظهور تباعاً، فكانت المدرستان الكبيرتان:

- «مدرسة القانون المقارن» حيث استفاد طلاب هذه المدرسة في الأنثروبولوجيا كثيراً، حين ذهبوا لدراسة القانون المقارن، وبصورة خاصة القانون القديم وقوانين الشعوب البدائية.

- «المدرسة التطورية» التي تأثر طلابها بنظريات لامارك وداروين في التطور الحياتي، فبنوا نظرياتهم عن التطور الاجتماعي على نفس الأساس.

وفي مطلع القرن العشرين تصدّر في الأنثروبولوجيا جيمس فريزر وأميل دوركايم وراد كلف براون ومالينوفسكي وألبوث سميث ورفرز، كما تأسست مدارس إنثروبولوجية مهمّة مثل مدرسة «الانتشار الحضاري» و«المدرسة الوظيفية» وكلتاهما هاجمتا نظريات «المدرسة التطورية» مع ذكر «المدرسة البيئية» القديمة مستمرة الوجود.

إذاً مما سبق نستطيع القول: إن «الأنثروبولوجيا» بدأت بشكل

علمي حقيقي في القرن العشرين بظهور أسماء عباقرة الأنثروبولوجيا ومؤلفاتهم، إضافة إلى مدارس الأنثروبولوجيا الحديثة والمهمة التي ساعدت في نمو وتطوير هذا العلم.

والجدير بالذكر هنا أن علم الاجتماع وعلم الأنثروبولوجيا هما علمان متقاربان، بحيث لا يمكن للشخص الفصل أو التمييز بين هذين العلمين، وللتمييز بينهما بشكل علمي يجب ذكر نقاط الاختلاف بينهما لمعرفة اتجاه كل منهما في الدراسات الاجتماعية، حيث تقسم الأنثروبولوجيا إلى أربعة أقسام رئيسية من وجهة نظر الأنثروبولوجيين وهي:

- أولاً: الأنثروبولوجيا الطبيعية:

يرتبط هذا القسم بالعلوم الطبيعية ولا سيما علم التشريح وعلم وظائف الأعضاء الحيوية «physiology» وعلم الحياة Biology وينتمي هذا القسم إلى قسم العلوم الطبيعية، وأهم تخصصاته علم العظام، وأيضاً علم البناء الإنساني Human Morphology ومقاييس جسم الإنسان anthropometry ودراسة مقاييس الأجسام الحية، ولدينا علم الجراحة الإنساني Human serology ويُدرّس هذا القسم في كليات الطب والعلوم وكليات العلوم الاجتماعية في أقسام الأنثروبولوجيا، ومعظم المتخصصين فيه من الأطباء وعُلماء الحياة.

وتختص الأنثروبولوجيا الطبيعية بدراسة ظهور الإنسان على وجه الأرض كسلالة حيوية متميزة، واكتسابه صفاته الخاصة كالسير

منتصباً واستعمال اليدين والكلام، ثم تتجه إلى دراسة تطوره الحياتي وانتشاره على بقعة اليابسة والقارات، وتُدرّس أيضاً السلالات البشرية القديمة وصفاتها، والعناصر البشرية المُعاصرة وصفاتها وأوصافها الجسمية المُختلفة، وتغيير هذه الصفات حسب البيئة والمكان فمثلاً:

الإنسان الذي يعيش في المنطقة الشمالية من أوروبا يتميز بتركيب جسماني مختلف عن الإنسان الذي يعيش في جنوب إفريقيا، فالأول يتميز ببشرته الفاتحة وأنفه الطويل الذي يقوم بتسخين الهواء البارد الداخل إلى الرئتين والفتحات الأنفية الصغيرة لكثرة الأوكسجين نتيجة الرطوبة والثلوج، أما الإفريقي فيتميز بلون بشرة قاتمة لعكس الحرارة الخارجية وأنف قصير لسخونة الهواء الداخل إلى الرئتين والفتحات الأنفية الكبيرة لقلة الأوكسجين في تلك المناطق، ووضع مقاييس وضوابط لتلكَ العناصر كطول القامة، وشكل الجمجمة ولون الشعر وكثافته ولون العين وأشكالها ولون البشرة وأشكال الأنوف. كما ذكرنا. وتدرس الوراثة وانتقال ميزات الجنس البشري من جيلٍ لآخر.

. ثانياً: الأنثروبولوجيا الاجتماعية:

وتتركز على المُجتمعات البدائية وتأسست عام ١٩٤٥ حيث توجهت بدراستها إلى المجتمعات الريفية والحضرية في الدول النامية والمُتقدمة، إذ تختص بدراسة وتحليل البناء الاجتماعي والعلاقات الاجتماعية والنظم الاجتماعية مثل: العائلة والفخذ والعشيرة والقرابة والزواج والطبقات والطوائف الاجتماعية، والنظم الاقتصادية كالإنتاج والتوزيع والاستهلاك والمقايضة والنقود، والنظم السياسية كالقوانين والعقوبات

والسلطة والحكومة، والنظم العقائدية كالسحر والدين والأعراف.

وتتوجه الأنثروبولوجيا الاجتماعيّة إلى البناء الاجتماعي للمجتمعات الإنسانية، وأهمها البدائية التي تظهر فيها وحدة البناء الاجتماعي، وينصبُّ اهتمام هذا الفرع بالحالة الاجتماعية للحضارة والدراسة العميقة التفصيلية للبناء الاجتماعي والتناسق والتوافق المتبادل بين النظم الاجتماعية «النظرية الوظيفية» وأن هذه النظمَ الاجتماعية في مجتمع ما هي نسيجٌ متعدد العناصر المختلطة والمتشابكة، حيث يُؤثر كل عنصر على العناصر الأخرى التي تعمل على خلق وحدة اجتماعية تسمح للمجتمع بالاستمرار والبقاء، ولا تهتم هذه الدراسات بتأريخ النظام الاجتماعي، لأنه لا يُفسر طبيعتهُ البنيوية وإنما تُفَسر تلكَ الطبيعة عن طريق تحديد وظيفة النظام الاجتماعي الواحد في البناء الأساسي للمجتمع.

- ثالثاً: الأنثروبولوجيا الحضارية «أو الثقافية»:

وتدرس مُخترعات الشعوب البدائية وأدواتها وأجهزتها وأسلحتها وطرُز المساكن وأنواع الملابس والزينة والفنون والآداب والقصص والخرافات، أي كل إنتاجات الشعوب البدائية المادية والروحية، كما تركز على الاتصال الحضاري بين الشعوب والتطور الحضاري والتغير الاجتماعي، وقد ذكر «ويل ديورانت»[1] في موسوعته «قصة الحضارة» عن الفكر الإنساني القابل للتطور منذ فجر التاريخ إلى يومنا هذا، وما

---

(١) ويليام جيمس ديورانت William James Durant ١٨٨٥ – ١٩٨١ فيلسوف ومؤرخ وكاتب أمريكي من أشهر مؤلفاته كتاب «قصة الحضارة» حيث شاركته زوجته أريل ديورانت في تأليفه، وقضيا في إنجازه كموسوعة أربعين عاماً.

رايه للمستقبل، وارتباط الفكر الإنساني بالتطور المعرفي، حيث كتب:

«قد رأينا الثورة الصناعية تبدأ بذلك السيل المتدفق من المخترعات التي قد تحقق - قبل أن نصل إلى الألف الثاني للميلاد - حلم أرسطو بالآلات التي تحرر البشر من كل عناء يدوي، ولقد سجلنا المراحل التي خطتها علوم كثيرة صوب فهم أفضل للطبيعة وتطبيق أجدى لقوانينها، ولقد رحبنا بانتقال الفلسفة من الميتافيزيقا العقيمة إلى اجتهادات العقل في شؤون البشر الدنيوية، ولقد علمتنا جهود الساسة والفلاسفة أن نُقيّم حكومة عادلة قادرة، وأن نوفق بين الديمقراطية وبين بساطة البشر وعدم مساواتهم الطبيعية، ولقد استمتعنا بمختلف إبداعات الجمال في الباروك والفن الكلاسيكي المحدث وانتصارات الموسيقى، واستمتعنا أيما استمتاع بثروة القرن التاسع عشر في الأدب والعلم والفلسفة والموسيقى والفن والتكنولوجيا والحكم، لقد أتممنا على قدر استطاعتنا قصة الحضارة هذه، ومع أننا كرسنا معظم حياتنا لهذا العمل فإننا عليمان بأن عمر الإنسان ما هو إلا لحظة قصيرة في التاريخ، وبأن خير ما يقدمه المؤرخ من عمل سرعان ما يكتسح حين يطفو نهر المعرفة ويتعاظم، غير أننا ونحن نتابع دراستنا من قرن إلى قرن ازددنا يقيناً بأن كتابة التاريخ الرسمي قد أسرف في تجزئتها أبواباً وفروعاً، وأنه ينبغي لبعضنا أن يحاول كتابة التاريخ كلاً كما كان يعاش في جميع وجوه الدراما المعقدة الموصولة، لقد انقضى الآن أربعون عاماً من المشاركة السعيدة في ملاحقة التاريخ، وكنا نحلم باليوم الذي نكتب فيه آخر كلمة في آخر مجلد، والآن وقد أقبل هذا اليوم فإننا سنفتقد الهدف الممتع الذي أضفى على حياتنا

معنى واتجاهاً، وإننا لشاكرون للقارئ الذي صاحبنا هذه السنين الكثيرة بعض الرحلة الطويلة أو كلها، لقد كنا على الدوام واعين بحضوره، والآن نستأذنه في الرحيل، ونقرئه تحية الوداع».

- رابعاً: الأنثروبولوجيا التطبيقية:

تَطوّرَ هذا الفرع كثيراً ولا سيما بعد الحرب العالمية الثانية ١٩٤٥ وتنوّعت مجالاتهُ بتطور أقسام الأنثروبولوجيا وفروعها، حيث يعتبر الجانب التطبيقي لهذهِ الأقسام والفروع، وهو الأداة الرئيسة لتطبيق نتائج بحوث كل فروع الأنثروبولوجيا التي تتجه لخدمة الإنسان والمُجتمع، وقد شملت هذه التطبيقات مجالات كثيرة أهمها: التربية والتعليم والتحضّر والسُكان والتنمية الاجتماعية والاقتصادية. ولا سيما تنمية المُجتمعات المحلية. والمجالات الطبية والصحة العامّة والنفسية والإعلام والاتصال وبرامج الإذاعة والتلفزيون والتأليف الروائي والمسرحي والفن ومجال الفلكلور «التراث الموروث الشعبي» والمتاحف، إضافة إلى المجالات الصناعيّة والعسكرية والحرب النفسية والسياسة ومُشكلات الإدارة والحكم والجريمة والسجون وغيرها.

وقد توسع هذا القسم وازدادت البحوث فيهِ وظهرت له فروع حديثة تختص بالأنثروبولوجيا الحضارية والاجتماعية، حيث اختص كل فرع منها بمجال محدد، وهذه الفروع نشأت حينَ استطاع الأوروبيون عن طريق التجارة والتبشير والاستعمار الاتصال بالشعوب البدائية، حيث أصبحت الحاجة ملحة لفهم هذه الشعوب لخدمة المصالح الأساسية في حكم هذه الشعوب بالذات ومساعدتها للحاق بقافلة المدنية الحديثة.

وسنذكر أخيراً علاقة الأنثروبولوجيا ببعض العلوم الاجتماعية الأخرى ومنها:

١ ـ الأثنولوجيا Ethnology: وهي علم تأريخ الحضارات والعلاقات الحضارية بين الشعوب، وتصنيف الحضارات وتوزيعها وانتشارها في العالم.

٢ ـ الأثنوغرافيا Ethnography : وهي الدراسة الوصفية للمجتمعات وحضاراتها.

٣ ـ الآركيولوجيا Archeology «علم الآثار»: وهي الدراسة الأثنولوجّية والأثنوغرافية لحضارات شعوبٍ بائدة من آثارها التي يعثر عليها العلماء في الحفريات.

٤ ـ علم الاجتماع Sociology : وهو دراسة الظواهر التي تنبثق عن العلاقات بين المجموعات البشرية، ودراسة العلاقة بين الإنسان وبيئته البشرية، ويركز علم الاجتماع الحديث في دراساتهِ على الظواهر الاجتماعية الأكثر تقدماً، أي على مشكلاتِ المُجتمعات المعقدة والمتطورة.

ولقد كان يعتقد بعض علماء النفس وبشكل خاص «ماك دوجل» أن السيطرة هي غريزة أو دافع فطري، يثيره وجود الفرد مع أفراد أدنى منه، وهو دافع ينزع بالفرد إلى التحكيم والتزعم وإظهار القوة وتوكيد الذات أمام الآخرين، كما قال «آلدر»:

«إن السيطرة أقوى غرائز الإنسان»

وجلَّ ما نستطيع قوله استناداً إلى البحوث الانثروبولوجية ـ كما مر معنا ـ إن هذه الدوافع هي مكتسبة، ويرجع اكتسابها أو عدم اكتسابها إلى الطرائق الخاصة التي تستخدمها مختلف المجتمعات في تنشئة الأطفال بما تتطلبه ظروف كل مجتمع.

دوافع اجتماعية فردية:

وتشمل الدوافع التي يتميز بها الأفراد بعضهم عن بعض، فقد يكتسبها بعضهم لخبراته الخاصة، ولا يكتسبها البعض الآخر لأنه لا يميل إليها، فهذا يميل إلى الرياضة وذاك إلى الرسم والآخر إلى المسرح، وما هذه الدوافع والميول إلا اتجاهات نفسية تعبر عن استعداد وجداني عاطفي مكتسب ثابت نسبياً، يحدد شعور الفرد وسلوكه نحو أشياء معينة، فقد يميل الشخص إلى وظيفة معينة إن كان يرغب فيها إرضاء لبعض دوافعه الأساسية وتعويضاً عن النقص المكبوت كالشهرة مثلاً، أو يميل إلى لعبة معينة لأنها ترضي في نفسه حاجات أو دوافع التقدير الاجتماعي وتوكيد الذات كالألعاب القتالية أو لعبة كرة القدم كمثال.

وفي الغالب تكون الدوافع التي بُنيت لاختيار مهنة معينة لإشباع الحاجة المُلحة دوافع ذات طابع سلبي، حيث أنها تبتعد عن الهدف الأساسي لهذه المهنة وهو الاستقرار أو الربح المادي وتحل محلها الرغبات الغائبة عن إدراك العقل ومحاكمته، فتتحول جميع سلوكيات الإنسان لإظهار الحاجة إلى الإشباع، وعلى سبيل المثال:

الشخص الذي يمتهن مهنة تحت الأضواء لتعويض حالة من النقص المكبوت في لا وعيه، ودافع هذا النقص التواصل مع الجنس الآخر أو الحصول على مرتبة اجتماعية خاصة أو نيل القبول ضمن دائرته التي لم تعره انتباهاً في مسيرة وجودها وحالتها العادية، فيقوم الشخص بالعمل في مهن مثل الكتابة أو التمثيل أو السياسة بدافع ردم الفجوة في لا وعيه، فتنتج عن هذا العمل أمور سلبية ونتائج قد تجرف الشخص إلى أسوأ ما كان عليه من حالة مكبوتة لا يدركها سواه إلى حالة من التشتت والانفصام الظاهري.

وتختلف أيضاً ميول الأفراد باختلاف السن والجنس والبيئة والحضارة التي ينتمون إليها، فللأطفال والشباب والشيوخ ميولهم الخاصة بهم، والألعاب التي يميل إليها البنون تختلف عن الألعاب التي تميل إليها البنات وهكذا ...

الجمالُ والصَدى
أسطورةُ نرجسَ وإيكو «نركسوس»

سنذكر هنا الأسطورة الكاملة، ونقوم بتقديم التحليل النفسي للنص بشكل وافٍ:

«نركسوس» هو الاسم الإغريقي لنرجس ابن إله النهر «كفيسوس» حيث احتضن نهر كفيسوس بشرايينه المائية المتعرجة حورية أحد المروج الخضراء تدعى «ليريوبي» وقام بقذف مياهها المتدفقة في جوفها الخصب ليخرج إلى الوجود والحياة مولوداً بهي الجمال أسماه والداه «نركسوس» وَهَبت الآلهة نركسوس منذ طفولته حُسناً رائعاً وجمالاً خلّاباً لا يقاوم، نشأ نركسوس الجميل في أحضان المياه الجارية والمروج الخضراء، لم تقع عليه عين إنسان أو إله دون أن يعجب بجماله وسحره، تخطّى نركسوس مرحله الصبا، وكان يزداد جمالاً وبهاءً كلما تقدم في العمر، أحبّه رفاقه وأصدقاؤه، وأعجب به الذكور والإناث، كان نركسوس مُدركاً لجماله وإطلالته الجذابة، وكان يعرف أنه جدير بإعجاب الجميع وحبهم، لكنه كان لا يتواصل مع أحد من المعجبين به، بل كان يصدهم جميعاً ذكوراً وإناثاً، ولم يكن يعرف العشق، ومع ذلك ظل محط أنظار الجميع، ومركز إشعاع للسحر والفتنة.

إيكو ونركسوس:

من بين من أحبوا نركسوس وأعجب بجماله حورية تدعى إيكو «ech»، وهي كلمة يونانية معناها الصدى، كانت إيكو فتاة رائعة الجمال، رائقة الحسن، متحدثة لبقة، تعرف كيف تدير دفة الحديث، تقدر على التأثير بحديثها على من يستمع إليها، طليقة اللسان، وبارعة في القول، عاشت إيكو وسط المروج الخضراء أيضاً، وعلى ضفاف البحيرات والغدران، وكانت مولعة بالتحدث مع الغادي والرائح.

ذات يوم جلست إيكو فوق ربوة تتأمل في الرائح والغادي كعادتها، رأت من بعيد كبير الآلهة زيوس في صحبة حورية حسناء، ثم تبعتهم الإلهة هيرا الزوجة الشرعية لزيوس، تسعى لاهثة، وقد بدت على ملامحها علامات السخط والغضب، استوقفتها إيكو، وسألتها عن سبب سخطها وغضبها، وعلمت أنها تبحث عن زوجها زيوس الماجن، فقد وصل إلى أسماعها أنه جاء إلى تلك المنطقة لمقابلة إحدى الحوريات، سألتها هيرا عن زيوس، فادعت أنها لم تره في تلك المنطقة قط، ظلت تتحدث مع هيرا بصوت مسموع، وأخذت تقص عليها قصصاً مُسلية، وكلما همّت هيرا بمغادرة المكان لتبحث عن زيوس استوقفتها إيكو، وبدأت تروي لها قصة جديدة، ولم يكن بمقدور هيرا أن تتركها وحديثها الساحر، فقد كانت إيكو حلوة الحديث، بارعة في القول، قادرة على شد انتباه من يستمع إليها، ذهب عن هيرا غضبها وسخطها وهدأت نفسها، نسيت ما جاءت من أجله، وظلت هيرا تستمع بشوقٍ إلى أحاديث إيكو وصوتها العذب.

غابت الشمس وأقبل الليل وامتلأت السماء بالنجوم، ومازالت

هيرا تنصت إلى أحاديث إيكو، فجأة لمحت هيرا زوجها زيوس وهو ينطلق من خلفها هارباً نحو مملكة الألومبوس، انطلقت هيرا تطارده، وقد عاد لهيب الغضب يلهب مشاعرها، ونار الغيرة تأكل قلبها، ولأن هيرا قاسية لا ترحم عاقبت إيكو عقاباً شديداً بعد أن كشفت تعاطفها مع الإله زيوس في إخفاء نزوته عنها، وحرمتها حلاوة الحديث والقدرة على الكلام، لم تعد إيكو قادرة على المبادرة في الحديث، لكنها تستطيع فقط أن تردد بعض المقاطع الأخيرة من العبارات التي ينطق بها المتحدث، وها نحن حتى الآن نلاحظ أن الصدى يتردّد في بعض المقاطع الأخيرة من عبارات المتحدث.

ظلت إيكو تعيش وسط المروج الخضراء وعلى ضفاف البحيرات والغدران، ألفت حياة الصمت، واعتادت على عدم المبادرة بالكلام، لكنها كانت تزداد جمالاً وحسناً، بمرور الأيام كانت تجلس كعادتها فوق ربوة فيحاء تتأمل المارين، وتُردد بعض المقاطع الأخيرة من العبارات التي ينطق بها المتحدثون، لكنها لم تكن تُعجَب أو تولي الاهتمام بأحد سوى الشاب الوسيم نركسوس، كانت تراقبه في غدواته وروحاته، وتتبعه بنظراتها وهو يلهو ويمرح بين رفاقه وأصدقائه، لم تكن تجرؤ على الاقتراب منه، كانت تعرف أنه شديد الزهو بجماله ووسامته، وكانت تعرف أنه لم يجرب الحب أو لوعة الهوى، وتعلم أنه لا يستجيب لعبارات الغزل، كيف إذن تظهر أمامه وتطلب ودّه وهي غير قادرة على الكلام؟ كتمت إيكو غرامها واكتفت بمراقبة نركسوس في ذهابه وإيابه، ولم تكن تستطيع أن تفعل أكثر من ذلك.

ذات يوم خرج نركسوس بصحبة رفاقه وأصدقائه للصيد كعادتهم، أخذوا يتجوّلون وسط المروج الخضراء بحثاً عن فريسة لاصطيادها، ظهرت أمامهم فجأة عدة فرائس، انطلق الرفاق خلفها، وتفرقت الفرائس واتجهت كل فريسة في طريق لتفرق الرفاق، انطلق كل فريق وراء فريسة، وقد اشتدت المطاردة وطالت فترتها، أخذ نركسوس يطارد فريسته بسرعة هائلة، وظل يطلق سهامه القاتلة نحوها، وعندما أصابها في مكان قاتل وغمره السرور وأحس بحلاوة النصر وقف ينتظر رفاقه ليشهدوا ببراعته في الصيد، ولكن لم يحضر أحد، ظل يبحث عنهم على ضفاف البحيرات والغدران، ووسط المروج الخضراء، اكتشف نركسوس أنه أضل الطريق، وأصبح وحيداً بلا رفيق، لم يكن يعلم أن هناك عيناً تتابعه بنظراتها، لم يكن يحس بوجود إيكو ومتابعتها له طوال فتره الصيد.

طال تجوال نركسوس وتعبت قدماه، جلس يستريح على حافة الغدير، جلست إيكو فوق ربوة عالية تشاهد حسنه وبهاءه بإعجاب وشوق كبيرين، تتمعّن صامتةً بجماله ووسامته، ساورتها نفسها أن تهبط إليه، وترتمي بين أحضانه، لكن شجاعتها خانتها، واكتفت بمراقبته عن بعد .

طال انتظار نركسوس، ولم يحضر أحد من رفاقه وهو واقفٌ على قدميه، أخذ ينادي بأعلى صوته، عسى أن يدركه ويسمعه واحد منهم، نفد صبر إيكو، لم تحتمل أكثر من ذلك، أخذت تردد المقاطع الأخيرة من ندائه التي لا يصل إلى آذان رفاقه:

أنا نركسوس

نركسوس

أين أنت؟

أين أنت؟

أنا هنا بجوار الغدير

بجوار الغدير

هل تسمعني؟

تسمعني؟

احضر إلي فوراً

إلي فوراً

أنا أحتاج إليك

أحتاج إليك

هكذا ظلت إيكو تردد نداءات نركسوس حتى ظن نركسوس أن واحداً من رفاقه يرد عليه، بدت على ملامحه أمارات الفرح والسرور، وانفرجت أساريره وازدادت ملامح وجهه الجميل جمالاً، ولم تستطع إيكو أن تظل في مكانها بعيدة عنه، بدأت بالهبوط نحو الغدير، اتجهت نحو نركسوس وهي فاتحه ذراعيها، انطلقت مسرعة والابتسامة على شفتيها، وهي لم تزل تردد المقاطع الأخيرة من نداءاته التي لاتصل إلى آذان رفاقه:

تعال

تعال

إنني أريد أن أراك

أريد أن أراك

أنا تائه، أتوسل إليك

أتوسل إليك

اقتربت إيكو من نركسوس، وهي فاتحة ذراعيها تريد أن تقبله وأن تحتويه، معتقدة أنه يناجيها، قطب نركسوس جبينه، ونظر إليها في كبرياء وزهو وهو يقول:

لا أريدك

أريدك

لا أرغب في تقبيلك

أرغب في تقبيلك

أموت قبل أن أشتاق إلى أحضانك

أشتاق إلى أحضانك

هكذا ظلت إيكو تردد المقاطع الأخيرة من كلمات نركسوس الغاضب، وهي تندفع بسرعة هائلة نحوه، لكنه ابتعد فجأة عن طريقها

بقسوة وغرور، عندئذ هوت العاشقة البائسة على الأرض، ارتطم جسمها بالصخرة التي كان يجلس عليها نركسوس، لمس جبينها الناصع قدمي نركسوس، أحست إيكو بطعنة نافذة في قلبها، نهضت العاشقة المجروحة تجمع أشلاء كرامتها المتناثرة، وانطلقت تعدو بلا هدف بعيداً عنه.

عاد نركسوس إلى رفاقه، وظل يغمره الفرح والسرور ويشعر بحلاوة النصر، لكن جرح إيكو لم يندمل وظلت تجلس ـ كعادتها ـ فوق الربوة تراقب نركسوس في ذهابه وإيابه، لم تتوقف لحظة واحدة عن التكفير بكرامتها المحطمة وبقلبها المجروح وبالمهانة التي لحقت بها كأنثى عاشقة، بالعار الذي قضى عليها، لم تتوقف لحظة واحدة عن الحزن والبكاء، والأسى لم يفارقها طرفة عين، عاد نركسوس إلى رفاقه، وظل يلهو ويمرح كعادته، يصيب الفرائس في أماكن قاتلة، ظل يجهز على فريسته الواحدة تلو الأخرى، ليزيد على إيكو الحزن والبكاء، لم يفارقها لحظة واحدة الإحساس بالندم، فقد أصبحت مثار غضب الآلهة والربات، وأصبحت مثار سخرية جميع البشر، لم تعد زميلاتها الحوريات يحضرن لزيارتها، أو يرتضين مصاحبتها في نزهاتهن، ذوى عودها النضر، وذبل جمالها الأخاذ، وفني جسدها اللدن، وذاب هيكلها في الهواء، وتناثر رفاته بين موجات الأثير، واختفت إيكو بجسدها عن الوجود، لم يبق منها سوى الصوت «الصوت الذي يسمعه المتحدث مردداً المقاطع الأخيرة لحديثه».

ازداد زهو نركسوس مع الأيام، وازداد اعتداده بنفسه، لكن أفروديت لم تكن لتتخلى أبداً عن العاشقين المنبوذين، ولم تكن ترضى

أبداً عن المتمردين على الحب، ناجت إيكو أفروديت لتخبرها أنه ما كان ليصنع بها هذا وهي العاشقة الملتاعة، ولبّت أفروديت على الفور النداء ووعدتها بالانتقام من نركسوس، وإن انتقام الآلهة لشديد، وذات مرة كان نركسوس يمارس هوايته المفضلة، أخذ يطارد فريسة ويقذفها بسهامه القاتلة، قضى فترة طويلة يعدو تحت أشعة الشمس الحارقة، وتعبت قدماه، واشتد به الظمأ فجأة، وقع بصره على منطقة ظليلة يتوسّطها غدير، اتجه بلهفة نحو الماء، وكانت الأشجار الباسقة من حوله تغمر المنطقة بالظلال، اقترب من الغدير وأحس بالهواء الرطب يمسح وجهه ويجفف عرقه، انبطح نركسوس على الأرض الرطبة، ومال بوجهه الجميل نحو صفحه الماء، شرب وارتوى وشعر براحة لم يشعر بمثلها من قبل، وهو منبطح على حافة الغدير كانت مياه الغدير صافية وصفحتها الساكنة مثل مرآة لامعة، همّ برفع وجهه من فوق سطح الماء فجأة ليرى تحت الماء وجهاً بشرياً رائع الجمال توقف نركسوس عن الحركة، وتحجرت مقلتاه، وظل يحملق في العينين الجميلتين، ولاحظ أنهما أيضاً تحملقان في عينيه بوضوح، ارتسمت على شفتيه ابتسامة عذبة رقيقة، فارتسمت على شفتي الوجه الجميل تحت الماء أيضاً ابتسامه لا تقل عذوبة ورقة عن ابتسامته، أحس نركسوس بوخزة بسيطة في صدره، ولكنها لم تؤلمه، أحس برعشة خفيفة تسري في جسده، لم يحاول أن يعرف سببها، غادر المكان عائداً إلى بيته، وهو يحس بشيء لا يعرف ما هو.

لم يذق نركسوس طعم النوم تلك الليلة، حيث قضى الليل ساهراً يفكر في العينين الجميلتين اللتين رآهما تحت الماء، غادر فراشه مبكراً على غير عادته، وذهب إلى الغدير وأطل بوجهه الجميل على صفحة

الماء الصافي الساكن، ليرى أيضاً الوجه الجميل تحت الماء يطل عليه، انسحب إلى الوراء قليلاً، تراجع الوجه تحت الماء في نفس الاتجاه، لوّح بيده الجميلة ورأى تحت الماء يداً تلوح له كحورية مائية، أقبل الليل وساد الكون صمت رهيب، وظل نركسوس ساهراً في مكانه على حافة البحيرة لا يفارق الوجه الجميل، وبدأ يحس برغبة شديدة في الذهاب إلى الغدير يومياً، ذهب إلى هناك ليلاً، وتسلل بهدوء حتى لا يزعج صاحبة الوجه الجميل، كان القمر يلقي بنوره الفضي على صفحة الماء الصافي الساكن، عندما أصبحت جبهة نركسوس وعيناه فوق صفحة الماء، استولت عليه الدهشة، لاحظ أن صاحبة الوجه الجميل تنظر إليه من تحت الماء، يا لها من عاشقة مخلصة مازالت ساهرة مثله تنتظر مجيئه في سكون الليل، أدرك نركسوس أنه أحب ووقع بالوله، لوّح بيده الجميلة لحسنائه، فلوحت حسناؤه بيدها الجميلة من تحت الماء.

ظل نركسوس يتردد على الغدير ليلاً ونهاراً، يلوّح بيده لمحبوبته من فوق الماء، فتلوح له محبوبته من تحت الماء، يحييها بابتسامة عذبة، وترد عليه التحية بنفس الابتسامة، يبثها عبارات الغزل الرقيق، فتحرك شفتيها لتصل إلى سمعه عبارات غزل مماثلة، يمد يده في الماء محاولا أن يمسك بحسنائه، لكن صفحة الماء تهتز، وتختفي حسناؤه على الفور.

ضاقت به الدنيا، وتملكه اليأس وسيطر عليه الحزن، إنه يحب حسناءه ويعشقها، لكنها لا تبادله الحب، بل تهرب منه، أحس أنه عاشق منبوذ، لم يغادر نركسوس حافة الغدير، ولم يتوقف لحظة واحدة عن النظر إلى وجه الماء، قضى ليله ونهاره محاولاً أن يمسك بحسنائه، لكنه

لم يكن يتمكن من ذلك، ذبل عوده وراح جماله وأصبح كسيراً وذليلاً لا تعرف الابتسامة طريقها إلى شفتيه، قضى عليه الحزن والفراق، وفارق الحياة وهو يقول:

وداعاً.. وداعاً.. يا من أُحب.. وداعاً.

فارق الحياة، وهو يسمع صوتاً نسائياً عذباً يقول:

يامن أحب، وداعاً...

لم يكن الوجه الجميل الذي رآه نركسوس تحت الماء سوى صورة وجهه الجميل تنعكس على صفحة الماء، ولم يكن الحب الذي استعذبه نركسوس سوى عقاب أنزلته عليه أفروديت، ولم تكن إيكو أيضاً قد تخلصت من حبها لنركسوس، لكنها كانت تريد أن تنتقم لكرامتها المحطمة.

ألقت إيكو نظرة أخيرة على جسد نركسوس الراقد على حافة الغدير وسط المروج الخضراء، ثم انطلقت بعيداً عن المناطق المزروعة العامرة، عاشت ومازالت تعيش حتى الآن صوتاً بلا جسد أو هيكل في الأماكن الجبلية المقفرة، عاشت وما زالت تعيش وهي تردد المقاطع الأخيرة من عبارات مسافر أو عابر سبيل، أما نركسوس فقد أشفقت عليه الآلهة، وأعادته إلى الحياة، لكنه لم يعد بشراً كما كان من قبل، بل أصبح زهرة جميلة، مظهرها يعبّر عن الحزن، تنمو على ضفاف البحيرات والغدران، ووسط المروج الخضراء، عاد نركسوس إلى الحياة في صورة زهرة مازالت حتى الآن تسمى زهرة النرجس الحزينة «نركسوس».

التَحليلُ النفسيُّ لأسطورةِ الجمالِ والصَدى

هذه الأسطورة من الأساطير الساحرة والخلابة في العصر القديم، وقد أخذت مكاناً راقياً عبر حقبٍ من التطور الأسطوري، مع العلم أن شكلها العام قد تغيّر نتيجة تطور تجربة الفكر الواعي، ولكن جوهرها حافظ على نصاعته واستقلاليته الأساسية.

أسطورة الجمال والصدى يُرمز لها بزهرة النرجس الحزينة، وذات الجمال الهادئ، تنمو بالقرب من المجاري المائية، مانحة المناظر الطبيعية من حولها سكوناً خلاباً، يري فيها الإنسان تعبيراً عن الحزن، إلّا إن القدماء رأوا فيها نهاية كل شيء جميل، كانوا يعدّونها رمزاً للموت والفناء نظراً لقصتها المنسوجة، وبذلك أصبح نركسوس الفتى الذي عشق صورته في الماء، وإيكو التي تردد الصوت في الصحارى والجبال والظلام رمزاً لقصة الفراق والعذاب والحزن.

نبدأ من الفكرة الأولى في الأسطورة وهي المنشأ الذي احتوى بذرة التطور في سير أحداثها «رب الأنهار» والذي وضع قوته في رحم المياه، لتحبل منه وتلد «نركسوس» إذاً كما باقي الأساطير المرتبطة بالتكوين والقوة الخارقة لا بد من وجود فكرة غير منطقية، لتبدأ عندها البنية الفنية للأسطورة، باعتبار أن الأحداث ستتطور إلى حالة من السلطة

القدسية والعبادة في أغلب الأحيان، فالأم التي حملت «نركسوس» في أحشائها هي الأم الكبرى «الطبيعة» وهي التي تمثلت بدور بطولي في الجزء الأول من الرواية، وفي الجزء الأخير منها، فقد كان الماء هو النقطة الواصلة بين مفاصل الرواية الدرامية، والتصاق العمل الدرامي ضمن هذا الفضاء الحدثي، فلا يمكن أن يكون الماء حالة استثنائية لأسباب عدة تتعلق باللاوعي لدى العقل البشري حينها، فما هي هذه الأسباب؟ سنقوم بطرحها وعرضها للنقاش على قاعدة وأسس نفسية واضحة:

الماء في الأسطورة والفكر القديم

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[1]

وجد الماء في الفكر القديم لأسباب تتعلق بالخوف أولاً باعتبار أن الماء قوة عظيمة في نظر أهل الحضارات القديمة، فقد كانت هي واهبة الحياة، وهي أيضاً جالبة الموت بقوتها التدميرية، وقد أخذت مكاناً في المجمع الإلهي يعدّ ضمن الهرم السلطوي في المرتبة الثانية، فقد قسم الإغريق العالم بين ثلاثة أرباب أقوياء:

١ ـ هاديس إله العالم السفلي.

٢ ـ بوسيدون إله المياه والمحيطات.

٣ ـ زيوس إله ما تبقى من الكون.

وكان لبوسيدون سلطة عظيمة جعلته السيد المطلق في أغلب القصص الأسطورية، فعندما أرسل زيوس ابنته أثينا إلى بوسيدون

---

(١) سورة هود، الآية ٧.

لتنهاه عن الوقوف بجانب الإخمينيين ودعمهم في دحر طروادة، غضب إله المحيطات لاعتبار أن زيوس يهدده، ويأمره وأحدث زلزالاً مائياً أرعب مجمع الآلهة، ليوصل فكرة أنه شقيق زيوس، وليس عبداً لديه، حتى الزلزال أرعب هاديس من أن تنشق الأرض فوق عالمه السفلي ويشاهد الأحياء ما فيه، وهو الذي قذف بأديسيوس ورجاله عشر سنوات بعيداً في مجاهل مرعبة عقاباً له على فكرة الحصان. كما ذكرنا. وهذه الأساطير جعلت للماء المالحة المترامية الأطراف رهبة وخوفاً، حتى أن بعض الحضارات المتقدمة كانت توقف عمليات الإبحار والصيد في أوقات تعدّها استراحة لإله المحيط.

وحظي الماء الحلو ومياه الأنهار والأمطار بحصانة إلهية أيضاً بجعل إله لها وهو «أسوبيوس» والأمطار «بعل» كما مر معنا سابقاً. وقد كانت لدى بعض الحضارات التي نشأت على ضفاف الأنهار الكبرى طقوس حول الأنهار والفيضانات[1]، وفي الأساطير البابلية أيضاً مثل «الأيوناما إيليش» التي تحدثت عن «تعامة» الماء العظيمة والعماء الأبدي، وفي التوراة سفر التكوين:

«في البدء خلق الله السموات و الأرض، وكانت الأرض خربة و خالية و على وجه الغمر ظلمة، وروح الله يرف على وجه المياه»[2]

وحسب المنظومة التي تحكم الذاكرة اللاواعية في النفس البشرية

---

(١) حول الطقوس المرتبطة بالزراعة والمطر والماء، راجع مؤلفي الحقيقة السوداء، دار أكتب / مصر ٢٠١٧ صفحة ٢٨.

(٢) سفر التكوين، الإصحاح الأول ٢:١.

نستطيع أن نستنتج وجود فكرة الماء من الذاكرة الأولى للعقل البشري المادي، حيث نشأ هذا العقل وتشكل بمواده العضوية وخلاياه العصبية وهو مغمور بالماء «ماء الرحم» في فترة الجنين، وبقيت هذه الصورة مرتبطة بالفكرة الأولية في اللاوعي أن «في البدء كان الماء» والتفسير الديني الذي تلا هذه الفكرة أخذ يصور الماء بشكلها المجازي، فمثلاً بعض المذاهب الأخلاقية في الإسلام التي ظهرت بين القرنين الثالث والرابع الهجريين أوعزوا فكرة الطوفان والماء إلى طوفان الدين أو طوفان الخطيئة، حيث فسر «الزمخشري» الأمر برمته على أنه خطيئة واضحة في معصية الله تعالى في سورة نوح:

- تقديم «مِّمَّا خطيئاتهم» لبيان أن لم يكن إغراقهم بالطوفان، فإدخالهم النار إلا من أجل خطيئاتهم، وأكد هذا المعنى بزيادة «ما» وفي قراءة ابن مسعود «من خطيئاتهم ما أغرقوا» بتأخير الصلة، وكفى بها مزجرة لمرتكب الخطايا، فإن كفر قوم نوح كان واحدة من خطيئاتهم، وإن كانت كبراهنّ، وقد نعيت عليهم سائر خطيئاتهم كما نعى عليهم كفرهم، ولم يفرق بينه وبينهن في استيجاب العذاب، لئلا يتكل المسلم الخاطئ على إسلامه، ويعلم أنّ معه ما يستوجب به العذاب وإن خلا من الخطيئة الكبرى.[1]

وكان التفسير للآية التالية في «تفسير الجلالين»:

﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ

(١) تفسير الزمخشري، الجزء ٢٩، سورة نوح.

أَنصَارًا ﴾[1]

«ممَّا» مَا صلَة «خَطَيَاهُمْ» وَفِي قِرَاءَة خَطِيئَاتهمْ بِالْهَمْز «أُغْرِقُوا» بِالطُّوفَانِ «فَأُدْخِلُوا نَارًا» عُوقِبُوا بِهَا عَقب الْإِغْرَاق تَحْت الْمَاء «فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُون» أَيْ غَيْر «اللَّه أَنْصَارًا» يَمْنَعُونَ عَنْهُمْ الْعَذَاب.

فهل كان الماء في بدء التكوين كما هو الماء الآن؟ أم أنه كان بمعنى مجازي تعبيراً عن الفراغ العظيم؟ وهل كان الطوفان الذي أنذر به الله عز وعلا نوح طوفاناً بمعنى الكلمة الحرفي؟ أم أنه كان طوفاناً لمحو المعصية عن أرض الله؟

يمكن أن نقاطع هذه الأحداث مع قصص موجودة ضمن الأساطير القديمة، وهي حدث الطوفان العظيم، أو الحريق الكبير، أو أي كارثة أحاقت بالعرق البشري، ومن ثم كان هناك مخلص لهذا العرق من الكارثة.

في ملحمة «جلجامش» نرى أن قصته اكتملت بقسمها الثاني عندما مات شريكه «أنكيدو» فبدأ يبحث عن الخلود، وسنذكر ملحمة جلجامش التي عُثر عليها مجزأة في مكتبة ملك أشور «أشور بانيبال» ٦٦٩ - ٦٢٩ قبل الميلاد مسجلة على اثني عشر رقماً فخارياً، تحتوي على ٣٦٠٠ بيت شعري، وفي سنة ١٨٧٢ ميلادية أعلن موظف المتحف البريطاني بلندن «جورج سميث» عن توصله لحل رموز أحد الألواح، وتتالت بعدها البعثات الاستكشافية إلى المنطقة، حتى تم الكشف عن الألواح الاثني عشر

(١) سورة نوح، الآية ٢٥.

الباقية، وبعد دراستها أعلن أغلب الباحثين أن هناك تشابهاً بينها وبين قصة الطوفان التوراتية، يقول «زينون كوسيدوفسكي»:

«وقد أثبتت أدق التفاصيل صحة نظرية جورج سميث الذي فك رموز ملحمة جلجامش، وذلك كإطلاق الغراب والحمامة، وكوصف الجبل الذي رسا عنده الفلك، وكطول مدة الطوفان، وكالعبرة من الأسطورة: عقاب البشرية على أخطائها وأفعالها الدنيئة، وإنقاذ الإنسان المؤمن الشريف».

ويصف «ول ديورانت» جلجامش قائلاً:

«فهو طويل القامة، ضخم الجسم، مفتول العضلات، جريء مقدام، جميل يفتن الناس بجماله، لا يماثله أحد في صورة جسمه، يرى جميع الأشياء، ولو كانت في أطراف العالم، كان كل شيء وعرف كل شيء، واطلع على جميع الأسرار، واخترق ستار الحكمة الذي يحجب كل شيء، ورأى ما كان خافياً، وكشف الغطاء عما كان مغطى، وجاء بأخبار الأيام التي كانت قبل الطوفان، وسار في طريق بعيد طويل، كابد فيه المشاق والآلام، ثم كتب على لوح حجري كل ما قام به من الأعمال».

وجلجامش هو ملك على مدينة «أور» العراقية، أو كما جاء في الملحمة مدينة «أوروك» فصار ملكها وبطلها، وكان ثلثه إله، وثلثاه إنسان، وقد مهرته أمه الإلهة «نينسون» بالجمال، وقد كان يمتلك القوة والطاقة البارزة، فحكم على أهل هذه المدينة بالعمل ليلاً ونهاراً، فتضرع أهل المدينة لآلهتهم أن يخلصوهم من هذا الطاغية، استجابت الآلهة

وأرسلت له «أنكيدو» فتى الأدغال الذي يظهر معنا لأول مرة أن هناك إنسانا يعيش بين الحيوانات الكاسرة، فسمع عنه جلجامش، وأرسل إليه فتاة من معبد عشتار، وعندما تعرفت عليه وقامت بعلاقة جنسية معه تخلص من وحشيته، وعاد إلى حياة المدنية والرفاهية، فاستدعاه جلجامش وتعارك معه أمام أهل المدينة، ونشأت بينهما صداقة كبيرة، وبعدها اتجها إلى مرتفعات جبال لبنان الغربية «غابات الأرز» ليحاربا وحشها المخيف «حمبابا» وعندما انتصروا عليه عادوا مظفرين بالنصر، فحاولت الإله عشتار إغواء جلجامش لبطولته، ولكنه رفض خوفاً من مكرها، فهي ترسل عشاقها إلى العالم السفلي، وعدّتها إهانة لها، وطلبت من والدها كبير مجمع الآلهة الانتقام، وإلا ستحيل أرض العراق قحطاً وجفافاً، فقررت الآلهة معاقبة جلجامش بموت صديقه أنكيدو.

استيقظ جلجامش على المأساة الحقيقية وهي «موت الإنسان» بعد أن خرج الدود من أنف صديقه الذي رفض أن يدفنه آملاً بعودته من الموت، فهام على وجهه في الصحاري والبراري باحثاً عن وسيلة يحصل بها على الخلود، إلى أن وصل إلى «أوتنابشتيم» الذي أنقذ البشرية من الطوفان العظيم بسفينة مربعة الشكل كالصندوق، وكان موجوداً في أرض الخلود «ديلمون»[1] وقد حاز الخلود من قبل، فأرشده إلى نبات ينمو في المياه العميقة، واستطاع جلجامش الحصول على النبات، رجع به فرحاً، وفي طريق عودته وجد ماء عذباً، فنزل ليستحم فيه، وإذ بالحيَّة تسرق هذا النبات، وتسلب الخلود من جلجامش.

---

(١) مملكة البحرين حالياً.

إذاً فكرة الطوفان وُجدت من قَبل في الأساطير القديمة، وفكرة الماء الأبدي كانت مطروقة في البنية الأساسية للأساطير الأولى، وهذا يفسر سبب اتجاه أدوات المؤلف الأسطوري إلى جعل الماء في محور الأسطورة الأساسي الذي تبنى على أساسه الأحداث كلها.

وتُكمل أسطورة «نركسوس» السرد بخلق الطفل المعجزة الذي كان يحمل من صلابة الماء وجمال الطبيعة، فهو يصوّر بشكل إنسان وليس نصف إله ونصف إنسان، فقدراته هي قدرات إنسان عادي، ولم تذكر الأسطورة أي شيء غير مألوف في مسيرته وسلوكه، غير أنه كان جميلاً جذّاباً، وهذه الميزة تكفي لإكمال الحدث برمته على أسس أحداث منطقية، فمن المنطق أن تقع الإناث بغرامه لجماله، ولكن من الغريب أن يكون شخصاً أنانياً لا يحمل في قلبه أي مشاعر، فالمشاعر البشرية لا يمكن أن تتجزأ، حتى لو كانت متناقضة، فهو يكره المحبين ويحب الأصدقاء، هذه تناقضية وجدت في الأسطورة، لتعبّر عن حالات الطبيعة في الشتاء والصيف وفي الليل والنهار، ومن هذه التناقضية في الشخصية الرئيسية تمت أحداث الأسطورة التابعة التي تشعّبت إلى أكثر من اتجاه، لتشمل نواحي من الحياة اليومية لدى الحضارة التي رزخت تحت وطأة الأسطورة القدسي.

يتابع الراوي لنا الأحداث عن نرجس الذي أصبح شاباً جميلاً مكتمل التفاصيل والذي تعلّق بالصيد وملاحقة الطرائد - وهذه العادة أو الهواية - هي من الصفات المهمة والأساسية في أي شخصية قد تسعى في بنائها لتكون ضمن صناعة الحدث في الحضارات القديمة، حيث كان

يعدّ الصيد من الواجبات الأساسية وفي الأولوية منها حتى، باعتبار أن المجتمعات والحضارات القديمة كانت تعتمد في نصف دخلها اليومي وقوت شعوبها على الصيد، علاوة على أنه كان هواية أصحاب الطبقات العملية والبطانة الحاكمة لمئات السنين.

في الميثولوجيا الإغريقية القديمة كانت «آرتميس» إلهة الصيد والبرية وحامية الأطفال وإلهة الإنجاب وكل ما يتعلق بالمرأة، حيث تعتبر إحدى أهم وأقوى الآلهة اللاتي شاركن في الأحداث الأساسية في أغلب الوقائع المعروفة، وتنتمي للأولمبيين أو الآلهة الاثني عشر، وهي ابنة زيوس وليتو، وأيضاً الأخت التوأم لأبولو، ووصفت في الأناشيد المتعلقة بالصيد أنها ربة الصيد والغابات والتلال والقمر والقنص والحيوانات الضارية، وهي صيادة عذراء أبدية، ويشار إليها بسيدة الوحوش، لتأثيرها على الحيوانات المفترسة، وأطلقت عليها ألقاب عديدة لتمثيلها، وقد تكون هذه أيضاً أسماء آلهة أخرى تم تعريفها «بآرتميس»:

- بوتنيا ثيرون «صاحبة الحيوانات المتوحشة».
- كوروتروفوس «التي تعتني بالشباب».
- لوكيا «المساعدة عند الإنجاب».
- أغروتيرا «الصيادة».

حتى ولادة هذه الإلهة كانت مشابهة لولادة أدونيس، باعتبارها ابنة غير شرعية لزيوس، فبعد أن خان زيوس زوجته «هيرا» مع الفاتنة «ليتو» أصرّت هيرا على معاقبتها بعدّة طرق، فقامت بإرسال أفعى

ضخمة تدعى «بايثون» إلى ليتو ومنعتها هذه الأفعى من الولادة في مكان تشرق فيه الشمس، فنقلها زيوس إلى جزيرة «ديلوس» الموجودة تحت الماء، حتى يحين موعد ولادتها، وهناك مراجع أسطورية تذكر أنها قد أنجبت في جزيرة «أورتيغيا» إلا أن تسميتها «بآرتميس ديلوس» في بعض الأساطير تعتبر دلالة على مكان ولادتها، وكما تنص بعض الأساطير أن «أورتيغيا» اسم قديم لجزيرة ديلوس، ولدت آرتميس قبل أخيها بيوم، فقامت فوراً بعد الولادة بمساعدة أمها على ركوب السلم المؤدي إلى مكان ما في الجزيرة، أو المؤدي إلى جزيرة ديلوس بعد ولادتها في أورتيغيا - حيث ولد أخوها أبولو - وهي إحدى ثلاثة إلهات ذوات مناعة ضد سحر وقوة أفروديت، والاثنتان هما «أثينا وهيستيا» ومن الجدير بالذكر أنها كانت مهتمة بعفتها وعذريتها منذ صغرها، لذلك لقبت «بالعذراء إلى الأبد» حيث جلست في حضن أبيها، لتطلب منه تحقيق بعض من أمانيها، أولها العذرية الأبدية، ثم تمنّت أن تكون جميع حورياتها صغيرات في التاسعة من العمر تقريباً - هذا عمر الدخول إلى سن المراهقة والنضوج في اليونان القديمة - وجميعهن عذراوات، ثم تمنّت الحصول على عربة فضية أو ذهبية تقودها، وتحتّم على جميع أتباعها أن يلتزمن بالعفة في حياتهن، وأن يحافظن على عذريتهن، وكانت تُلحق بمن يحاول أن يسلب منها عذريتها العذاب القاسي والشديد، ويذكر أنها قد مرت بالعديد من المحاولات من قبل الرجال للاعتداء عليها، إلا أن محاولاتهم جميعا باءت بالفشل، وأهم مثال على ذلك قصة «أكتيون» الذي خرج للصيد، فوجد آرتميس مصادفة وهي تستحم في بحيرة، واستمر في اختلاس النظر

لجمالها حتى رأته، فحولته في خضم غضبها العارم إلى ظبي، مما أدى إلى هجوم كلابه عليه وتمزيقه إرباً، وأيضاً عندما اكتشفت حمل «كاليستو» التي كانت إحدى حورياتها من زيوس، فلاحقتها، وأردتها قتيلة بأحد سهامها.

ولطالما اعتبرت آرتميس إلهة ذات تناقضات كثيرة، حتى في وظائفها، فوظيفتها الرئيسية هي الطواف في البراري والأدغال والأراضي غير المعمورة والصيد بوساطة قوسها الفضي وسهامها التي صنعها لها «هفستوس والسيكلوب» وحماية الصيادين في أثناء رحلاتهم، إلا أنها أيضاً تعمل على حماية الحيوانات وتقديسها عندما تطوف هذه المناطق بوساطة عربتها الفضية برفقة حورياتها، أو عندما تجوب مناطق الصيد رقصاً فتبارك وتحمي الحيوانات الصغيرة بوساطة صنادلها الفضية، وتصب غضبها على من يتعدى على مقدساتها، كما حدث مع «أغممنون» في أثناء حرب طروادة، حيث أنها منعت الرياح من الهبوب، فتوقف أسطوله البحري بأكمله، نتيجة قتله لظبي في المنطقة المقدسة أو المحمية، وهي تهتم بأمور المرأة أيضاً، حيث كانت تحفظ وتحمي الفتيات الصغيرات، وتستمر في ذلك حتى مرحلة البلوغ والنضوج، لذلك كانت الفتيات المقبلات على الزواج يقمن بتقديم دمية صغيرة أو خصلة من شعورهن قرباناً لها استعداداً للحياة الزوجية، لكنها تُلام في العادة عند الموت المفاجئ للنساء، حيث تَطلق سهامها على المرأة فتقتلها على الفور، إلا أنها قد تستخدم هذه السهام لسلب حياة الموعودين بالذهاب لأراض خيالية تدعى «سيريا» بعد الموت، كذلك وبالرغم من كونها إلهة

عذراء فإنها تساعد النساء في أثناء الإنجاب، وقد يرجع هذا الأمر إلى مساعدتها لوالدتها في أثناء إنجابها لأبولو، وعدم تسببها لأي ألم في أثناء الولادة أيضاً، ومن مهامها العديدة حماية الأطفال من الأخطار المختلفة، ولا سيما حديثي الولادة، سواء أكانوا ذكوراً أم إناثا.

وقد تميزت أيضاً بقوتها الجسدية وذكائها، إلا أنها لم تكن ضليعة بأمور الحرب كأخيها، لكنها كانت تستطيع معاقبة من تريد بأمر زيوس، كما حدث مع الملكة نيوبي، عندما تفاخرت بأبنائها الاثني عشر، وأهانت ليتو لإنجابها ابنين، وهما آرتميس وأبولو، ولثأر أمهما قاما بقتل جميع أبناء نيوبي بسهامهم، حيث تولى أبولو قتل الذكور الستة، بينما قتلت آرتميس الإناث الست.

وصُوّرت أرتميس في مواقف وكتابات عدة كفتاة ذات مقدار من الجمال واللطف، يُعادل جمال حورياتها، إلا أنها كانت ذات صفات معينة تميزها عنهن، فقد قورنت العديد من النساء في الأساطير الإغريقية بجمالها، من أمثال «بينيلوبي» ونُسبت إليها بعض الصفات الأخرى مثل الطول وامتلاكها الأجنحة، لكنها لم توصف قط بكونها ذات ملامح رجولية أو قاسية، ويقدم هذا تفسيراً لسبب استمرار أرتميس في الدفاع عن نفسها وعذريتها ضد الرجال، وتظهر أرتميس في الفن التقليدي الإغريقي بصورة صيادة بتول، ترتدي تنورة نسائية قصيرة، إضافة إلى زوج من أحذية الصيد، وعلى جنبها جعبة السهام، وبيدها القوس.

أما من حيث الطقوس والعبادة فقد انتشرت عبادتها في معظم المدن الإغريقية كإلهة ثانوية، بالرغم من أهميتها الكبيرة، إلا أن عبادتها

كإلهة رئيسية كانت منتشرة بشكل كبير في آسيا الصغرى، ولكن كإلهة الخصوبة إلى جانب الصيد، أقيم لها معبد في «أفيسوس» عاصمة آسيا الصغرى في القِدم. والذي يُعتبر إحدى عجائب الدنيا السبع. مما يبين مدى التزام شعب تلك البلاد بعبادتها، لكن التماثيل والشعائر الدينية التي وُجدت كانت مختلفة تماماً عن تلك الموجودة في اليونان القديمة، حيث كانت تتم على الطريقة الشرقية، ولذلك تم الخلط أحياناً بين أرتميس وإلهة أخرى هي «سيبيل» الإلهة الأم في تلك المنطقة، والتماثيل كانت تمثلها كامرأة منتصبة ذات عقد غريب الشكل، غير معروف إلام يرمز، إما لمجموعة من الفاكهة أو إكليل من الزهور، وعدد من الأثداء الزائدة، أو خصية الثور التي كانت تُقدم قرباناً لها، ومن الجدير بالذكر أن معظم الشعوب أو المناطق التي كانت عبادتها منتشرة فيها بشكل كبير لم تول أخاها أبولو الاهتمام الكبير، ومعظم هذه القرائن لا تمت للآلهة الإغريقية بأية صلة إلا من ناحية الاسم.

كانت تُقام العديد من المناسبات والاحتفالات إكراماً لأرتميس. طقوس الصيد. أهمها «براورونيا» التي كانت تُقام في براورون، وحفلة أرتميس «أورثيا» التي كانت تقام في إسبارطة، حيث كان الشبان يقومون بسرقة قطع الجبن من المذبح، ثم يُجلدون بالسوط، حتى تفسير هذه الشعائر غير معروف لضياعه بمرور الزمن.

أما بالنسبة لتوابعها أو كهنة معابدها فكن من الفتيات اللاتي وصلن لمرحلة البلوغ، حيث يدخلن لهذه العبادة مباشرة، وفي حال قررت إحدى الفتيات الزواج فعليها تقديم كل ما مثّل عذريتها، من خصلات

شعرها إلى الدمى على المذبح، ثم ترك الأراضي التي أقيم عليها المعبد نهائياً، أما الرجال فقد عُبدت من قبلهم كإلهة صيد في الغالب.

وُجدت بعض المناطق في العصور القديمة والإغريقية التقليدية التي تُنسب كأراض وملاجئ مقدسة لأرتميس، أهمها ملجأ «أرتميس أورثيا» الذي يُعتبر إحدى أكثر المناطق الدينية أهمية في ولاية إسبارطة الإغريقية، وقد شكّل المقر الديني لأتباع ديانة أورثيا، وقد وُجدت هذه المعتقدات قبل ظهور الأساطير الأولمبية، وصُورت أرتميس في العادة كأرتميس أورثيا على هيئة «بوتنيا ثيرون» كذلك وُجد ملجأ آخر منسوب إليها في «براورون» في الساحل الشرقي لآتيكا، حيث انتشرت ديانة «أرتميس براورنيا» وقد وُجدت فيها تماثيل لأطفال صغار، وبعض المجوهرات والأثريات المختلفة، ويعود هذا المعبد بحسب تقدير الخبراء وعلماء الآثار إلى القرن السادس قبل الميلاد، ولم يُحفظ فيه إلا القليل من المعلومات، بعد أن دمره الفرس حوالي سنة ٤٨٠ قبل الميلاد.

وفي الميثولوجيا الرومانية أيضاً إلهة تصدّرت سُدة الشهرة من ناحية الصيد، وهي الإلهة «ديانا» وهي إلهة الصيد والقمر والولادة، وهي مرتبطة بالحيوانات والنباتات البرية، ولديها القوة للتكلم والتحكم بها، ديانا تعادل الإلهة أرتميس في الميثولوجيا الإغريقية، هي من أصل إيطالي مستقل، كانت تُعبد وتُبجّل في الديانة الرومانية القديمة، كما أنها تُعبد اليوم أيضاً من قِبل أتباع الويكا «الدايانية» كرمز للأنثوية، وديانا حسب المعتقد الروماني هي الإلهة العذراء للولادة والمرأة، وواحدة من ثلاث ربات أقسمن على عدم الزواج وهن « ديانا ومينيرفا وفستا».

وكانت تُعبد أيضاً بوصفها إلهة القمر وحامية النساء وراعية الغابات والصيد، واتخذت معظم صفات آرتميس من الأساطير والميثولوجيا، وهكذا صار يُنظر إليها على أنها ابنة كبير الآلهة «جوبيتر» أو زيوس الإغريقي. وأن أمها «لاتونا» ولدتها مع شقيقها التوأم «أبولون» في جزيرة «ديلوس» وتعهدت ديانا بالرعاية والعناية بكل ما يعيش على الأرض، وكانت تسهر على الناس وقطعان الماشية الداجنة والوحوش البرية، وتبارك الزواج والولادة، ولكنها مع ذلك طلبت من والدها أن يأذن لها بالمحافظة على عذريتها كأختها مينرفا، فقبل ذلك، ومنحها قوساً وسهاماً، ونصّبها ملكة على الغابات، تساعدها حاشية من الفتيات اللاتي التزمن لها بالعفة التامة، ومارست معهن الصيد هوايتها المفضلة، وبعد تعب الصيد كانت ديانا تلجأ للمغارات طلباً للراحة والاستحمام، والويل لمن يزعجها، إذ تذكر الأساطير أنها بينما كانت تستحم مع وصيفاتها فاجأها «أكتيون» المسكين، فرشت عليه الماء محولة إياه إلى أيل.

وللربة ديانا انتشار كبير في مختلف أرجاء الإمبراطورية الرومانية، وحظيت بشعبية واسعة، وربما كان ذلك راجعاً إلى دورها في الإشراف على عمليات الصيد، لذا كان الصيادون يقدمون الأضاحي لها طلباً لرضاها، لتيسر لهم حملة صيد ناجح، وتحميهم فيها من خطر الحيوانات الوحشية.

وقد اختلفت طرق تصوير هذه الإلهة التي تتشابه رسومها مع أرتميس الإغريقية، إذ مثلت على الفخار، وهي على عربة تجرها

أيائل، أو في موقف صيد ترمي بسهمها أو توتره، وفي التماثيل صورت الإلهة مصحوبة غالباً بمشاهد تظهر فيها ممتطية أيلاً، بينما تميزت موضوعات الفسيفساء بمشاهد مستمدة من سجل الرسوم الهلنستية، أو من عروض مهرجانات الملاعب والمدرجات الرومانية، أما أكثر النماذج تصويراً ولاسيما في الفترة الرومانية فهو نموذج الصيادة ممسكة قوساً بيدها اليسرى، وتسحب سهماً من جعبتها بيدها اليمنى، وهذا التصوير للإلهة الصيادة يظهر كذلك في الفن الإغريقي، ولاسيما في النحت والنقش اللذين صورا «ديانا» العفيفة الصيادة المولعة بالغابات والجبال.

ومما يثير الانتباه في تصوير الإلهة كثرة تمثيل الأيائل والغزلان معها، وتفيدنا الأساطير أنه عندما تمكن البطل «هرقليس» من إدراك الظبية ذات الحوافر البرونزية التي كانت تعيش على سفوح جبال مينالا بأركاديا، كف عن إصابتها بسهامه، لئلا يثير حفيظة ديانا، وقد مُثّلت هذه الحيوانات مع الإلهة ديانا بوضعيات مختلفة وحالات متباينة، فهي إما مركوبة أو تُصطاد أو مرافقة للإلهة، وهي في مختلف هذه الموضوعات فخورة بمكانتها، تلبس ثوب الصيد المشمور بحزام، واضعة الكنانة على كتفها وتمسك قوساً موتورة تطلق بها سهماً، وهي عارية الساقين، وقد تنتعل حذاءً في بعض الأحيان، فقد صُورت أحياناً وخلف ظهرها هلال بوصفها آلهة القمر، في حين أن أبولون شقيقها إله الشمس.

إذاً فالصيد هو الأساس في أغلب الأساطير والروايات الأدبية القديمة، باعتبار أن له معابد وربّات وطقوساً قد تلقي بوشاحها

الرهباني على الحبكة والشخوص ضمن الحدث الروائي، ونرجس كان صياداً للتسلية، وليس للعيش وملاحقة القوت، وهذه الصفة أيضاً تجعله ذا شأن في مجتمعه، فوضعه الراوي كصياد لما لهذه المهنة أو الهواية من مكانة لدى أتباع الآلهة ولا سيما إلهة الصيد العنيفة.

وتستمر الحبكة في بناء الشخصية لبطلها «نركسوس» على أسس نفسية ظهرت بشكل جلي واضح في الصفات العامة لشخصيته، فحبُّ النفس والغرورَ من الأمور الواسمة له والمميزة لحالته الإنسانية والنفسية، ويبدو أن هذه الصفات إنما تجسّدت ضمن الأسطورة تعبيراً عن الفارق الحياتي بين الطبقة الحاكمة وطبقة الشعب آنذاك، فالمجتمع الإغريقي قُسّم إلى عدة مراحل، تطور خلالها النسيج الاجتماعي، ابتداءً من العصور المظلمة من عام ١١٠٠ قبل الميلاد إلى ٨٠٠ قبل الميلاد في أعقاب انهيار العصر البرونزي الذي لم يبقَ منه أي نصوص سوى بعض الأدلة الأثرية، وتُعتبر ثقافة هذه الفترة الثقافة الأصيلة التي وضعت الأساس للحضارة الغربية خلال «العصر الهلنستي» حيث كان للثقافة اليونانية تأثير قوي على الإمبراطورية الرومانية التي حملت معظمه إلى أجزاء كثيرة من منطقة البحر الأبيض المتوسط وأوروبا، كما كان لحضارة الإغريق القديمة تأثير كبير على اللغة والسياسة والنظم التعليمية، والفلسفة، والعلوم، والفنون.

وفي القرن الثامن قبل الميلاد وبعد سقوط الحضارة «الميسينية» بدأت اليونان الخروج من العصور المظلمة، حيث فقدت الشعوب اليونانية في تلك الفترة القدرة على الإلمام بالقراءة والكتابة، كما ذهب

النص الميسيني برمته إلى الذاكرة المنسية، وتوجه حينها اليونانيون إلى الأبجدية الفينيقية التي عدّلوها لإنشاء الأبجدية اليونانية القديمة. ثم بدأت ظهور النصوص المكتوبة في القرن السابع قبل الميلاد، وقُسمت اليونان إلى مجتمعات صغيرة ذات حكم ذاتي مرتبط بالجغرافيا اليونانية، حيث تنقطع كل دويلة عن جاراتها بجزيرةٍ أو وادٍ أو سهلٍ أو بحرٍ أو سلاسل الجبال.

ونتيجة هذا التطور والاستقلال شبه الكامل لكل مدينة كدولة قائمة بحد ذاتها، بدأ المجتمع اليوناني ينقسم إلى طبقات عدة، ولا سيما في أثناء «حرب ليلانتين» ٧١٠ - ٦٥٠ قبل الميلاد، والتي تعتبر أقدم حرب موثقة في العصر اليوناني القديم، حيث كان القتال بين مدن الدولة في كل من «شالسيس وأريتريا» فوق سهل ليلانتين الخصب في «إيبويا» ونتيجة الحرب طويلة انهارت المدن وانهار معها النظام الاقتصادي.

ونشأت بعدها في النصف الأول من القرن السابع الطبقة التجارية «نايمكس»، حيث ظهرت من خلال استخدام العملة والنقد في حوالي ٦٨٠ قبل الميلاد من تجار ومؤسسي الثروة الجدد والساعين لإنشاء السلطة السياسية، وابتداء من ٦٥٠ قبل الميلاد حارب الأرستقراطيون حتى لا يتم الإطاحة بهم والاستعاضة عنهم بالطغيان الشعبي، وهذا ما يعتبر في الأسطورة حالة الغرور أو التكبر الذي يظهر الفارق بين نرجس وأقرانه، متمثلاً بالأرستقراطيين والشعب الفقير، وفي ظل هذه الظروف السياسية أوجد تزايد عدد السكان ونقص الأراضي صراعاً داخلياً جديداً بين الفقراء والأغنياء في العديد من دول المدينة، حيث تم الاستيلاء على

«مسينيا» وفي بداية النصف الأخير من القرن الثامن قبل الميلاد قام السكان المقهورون والمعروفون باسم «الهَلُوت» بثورة اجتماعية جعلت من كل مواطن ذكر في «إسبارطة» جندياً وفي حالة استعداد عسكري دائمة، حتى النخبة اضطروا للعيش والتدريب كجنود، وهذه المساواة بين الأغنياء والفقراء نزعت فتيل الصراع الاجتماعي، وظهرت بشكل كامل في ٦٥٠ قبل الميلاد.

وبحلول القرن السادس قبل الميلاد ظهرت العديد من المدن المسيطرة على الشؤون اليونانية مثل: «أثينا وإسبارطة وكورنثوس وطيبة» حيث أخضعت كل واحدة منها المناطق الريفية المحيطة بها والبلدان الصغيرة إلى حكمها المباشر، وأصبحت أثينا وكورنثوس القوى البحرية والتجارية الكبرى كذلك.

ورغم تطور النظام الاجتماعي في المدن اليونانية إلّا أن الأسطورة هذه لم تتغير كما لو أنها تقصّدت تنشيط الذاكرة لدى أتباعها عن الفوارق الطبقية، وهذا يعتبر من الأمور التي يخزنها العقل اللاواعي في ذاكرته الدائمة خوفاً من تكرار حدوثها في الواقع المعيش.

ننتقل إلى «إيكو» في الأسطورة، وهي التي أحبت نرجس بصمت وراقبته طويلاً، وإذا تتبعنا قصتها منذ البداية فسنعرف أنها هي بمجملها الحالة الثقافية في المجتمع اليوناني القديم، باعتبارها متحدثة وصاحبة صوت جميل وقصص وأحاديث خلابة، فهذا الإسقاط يؤكد وجود نظرة علمية وفنية عند القاص، ليستطيع إدخال الفكر والفن المعروف حينها في أسطورته المتينة، حيث ازدهرت الفنون الكلامية في الأراضي الإغريقية،

وامتدت إلى أبعد من أراضيها، فنون لغوية وقصائد ملحمية «هوميروس» وروائع تصويرية مسرحية «أسخيلوس» ورغم وجودها في حبكة الرواية إلاّ أنها رضخت تحت السلطة القمعية في الفترة الطبقية أو العصور المظلمة، فقد تمثلت «هيرا» بالسلطة الطبقية التي عاقبت «إيكو» بأن أخذت منها قدرتها على الكلام، وأغلب الظن أن الفترة التي بدأت فيها حركات القمع ضد الطبقات الفقيرة شملت حملات محو وإتلاف لمخزون هذه الطبقات من الفكر والتدوين، وقد أُسقطت على الرواية بشخص هيرا الجبارة إثر حادثتها مع زيوس الذي خانها، وقامت إيكو بحمايته وتضليل هيرا عن مكانه، وهذه الحادثة ضعيفة البنية والمغزى وبشكل واضح، إذ لا علاقة معروفة بين زيوس وإيكو، ولا يوجد أي مصلحة متبادلة لتقوم إيكو بخدمة زيوس بهذا الشكل ومواجهة غضب هيرا القوية، ولكن ليتم القاص فكرته دون التعرض لأي أحداث وتفاصيل أخرى.

استمرت إيكو في محبة نرجس حتى سقطت تحت قدميه تعبيراً عن حبها له، ولكنها شعرت بالإهانة والعار، واعتزلت العالم والحوريات، واختفت بجسدها عن الناظرين، فما هو البعد الآخر لهذه الحادثة؟

تُعتبر حالة الرق والعبودية في الحضارة اليونانية من الحالات والمسائل التي أخذت أبعاداً عدة، فهي ذلك التقليد الذي كان شائعاً وجزءاً لا يتجزأ من «اليونان القديمة» وذلك على مر تاريخها، وأيضاً في بعض المجتمعات الأخرى في ذلك الوقت مثل فلسطين القديمة والمجتمعات المسيحية المبكرة، وتشير التقديرات إلى أن كل مواطن في أثينا كان يمتلك على الأقل عبداً واحداً، كان الرق عنصراً أساسياً في

أمة البلاد الإغريقية القديمة، حيث توجه أغلب الكتاب القدماء إلى أن الرق ليس ضرورياً فحسب بل طبيعياً، ولم يتكلم الرواقيون ولا المسيحيون الأوائل بالعبودية، لكن بدأت بعض النقاشات المتفرقة تظهر ولا سيما في حوارات سقراط منذ القرن الرابع قبل الميلاد وظهور بعض الجدالات التي كانت محجوبة وراء الجدران، ولاسيما «الحوارات السقراطية»[1] عندما شن بعض الرواقيين أول هجوم يُذكر على العبودية، على عكس تلك المجموعات التابعة من العبيد مثل «البينستاين والثيساليين والهالوتيون» المتقشفين الذين كانوا أكثر شبهاً بالعبيد في العصور الوسطى، وكانت مهمتهم تقتصر على حمايه العقارات والخدمة، والعبد ذو الحيازة الشخصية هو ذلك الشخص «امرأة أو رجل» الذي سلبت حريته وأُجبر على الخضوع لمالكه الذي ربما يشتريه أو يبيعه أو يؤجره مثل أي شي آخر.

واعتُبرت العبودية من الأمور المهينة للشخصية اليونانية في نطاق الأسطورة، وهذا ما جعل إيكو تختفي من الوجود لشعورها بالإهانة، ويبدو أن الأسطورة وُضعت بهذا الشكل المتسق مع سلطتها الرهبانية إنذاراً منها بثورة جديدة ضد العبودية والرق، حيث جعلت تبعات هذه المسألة العقوبة من الآلهة الجبارة.

وسنتطرق قبل متابعة أحداث الأسطورة إلى التحليل النفسي العلمي للشخصية الأساسية التي حرّكت أحداث الأسطورة بشكل منظم،

---

(١) هي نوع من الأعمال الأدبية النثرية، انتشرت في اليونان مطلع القرن الرابع قبل الميلاد، وتم الحفاظ عليها في أعمال أفلاطون، وهي تناقش المعضلات الفلسفية والأخلاقية، تتخذ الحوارات أنماطاً سردية أو درامية، وغالبا ما يكون سقراط الشخصية الرئيسية.

وهي شخصية «نرجس» المرضية التي كانت مصابة بمرض نفسي، أخذ اسم هذه الشخصية المفترضة وهو «اضطراب الشخصية النرجسية» فهل كان نرجس مصاباً فعلاً بمرض النرجسية؟ سنتحدث عن هذه الحالة المرضية بإسهاب، ونترك للقارئ العزيز استنتاج الحالة النفسية والصحية لبطلنا «نركسوس».

اضطرابُ الشَّخصيَّة النَّرجسيَّة وحبُّ الذاتِ المَرَضيّ

NPD

النرجسية في معناها العام هي «حب النفس أو الأنانية» وهي حالة اضطراب في الشخصية النفسية، حيث تصطبغ بالغرور والتعالي والشعور بالأهمية ومحاولة الكسب، ولو على حساب الآخرين، والنرجسيّة في علم النفس هي «العَظَمة المَرَضيّة» وتُعدّ اضطراباً عقليّاً بمنشأ نفسي يُعزّز شعور الشّخص بأهميّته الخاصّة وحاجته للإعجاب، وهذا يدفعه لعدم التّعاطُف مع الآخرين، ولكنه في تصرفاته الظاهرية يُخفي وجود قلّة الثقة بالنّفس، والاحترام القليل للذّات يجعل المُصاب عُرضةً لأيّ ردة فعل عنيفة عند الوقوع تحت انتقاد، ولو كان من شخص قريب أو انتقاد ودي.

يُسبب اضطراب الشخصيّة النرجسيّة مشاكل كثيرةً في مجالات الحياة، مثل علاقات العمل أو المدرسة أو في الناحية الماليّة، إذ لا يشعر المُصاب بالرّضا في حال عدم حصوله على امتيازات قد لا تكون من حقه، أو حصوله على الإعجاب والاهتمام الذي يعتقد أنه يستحقّه، وبالمقابل قد

لا يتمتّع الآخرون بوجوده، لذلك تكون علاقاته مُضطربةً وغير متوازنة، وقد يتعرض مَن في محيطه لأذىً نفسي أو أخلاقي أو حتى جسدي.

الصفة الأساسية في الشخصية النرجسية هي الأنانية، فالنرجسي عاشق لنفسه ويرى أنه الأجمل والأفضل، ويرى الناس أقل منه جمالاً، ولذلك فهو يُبيح لنفسه استغلال الناس والسخرية منهم.

والنرجسي يهتم كثيراً بمظهره وأناقته، ويدقق كثيراً في اختيار ملابسه، ويهمّه كيف يبدو مظهره في عيون الآخرين، وكيف يثير إعجابهم، ويستفزه التجاهل من قبلهم كثيراً، ويوتره النقد، ولا يستطيع تقبل غير المديح وكلمات الإعجاب.

كما يصاحب الشخصية شعور غير عادي بالعظمة، يُسيطر على صاحبها حب الذات وأهميتها، وأنه شخص نادر الوجود، أو أنه من نوع خاص فريد لا يمكن أن يفهمه إلا خاصة الناس، ينتظر من الآخرين احتراماً من نوع خاص لشخصه وأفكاره، وهو استغلالي، ابتزازي وصولي يستفيد من مزايا الآخرين وظروفهم في تحقيق مصالحه الشخصية، وهو غيور متمركز حول ذاته، يستميت من أجل الحصول على المناصب لا لتحقيق ذاته وإنما لتحقيق أهدافه الشخصية.

أسباب النرجسيّة:

من غير المعروف بشكل دقيق ما الذي يُسبّب اضطراب الشخصيّة النرجسيّة كما هو الحال مع غيره من الاضطرابات النفسيّة، لكنّ الأسباب المُرجحة للإصابة بهذه النوعيّة من الأمراض سببان:

. أولاً: عدم التّفاهم في العلاقة بين الوالدين والطفل، فإمّا التّدليل المُفرط أو النقد المُفرَط له في مرحلة الطّفولة.

. ثانياً: أسباب وراثيّة ونفسيّة مرتبطة بالاتّصال بين الدّماغ والسّلوك والتّفكير.

ويميل النرجسيون نحو إعطاء قيمة عالية لأفعالهم وأفضالهم والبحث عن المثالية في آبائهم أو بدائل آبائهم من حيث المركز والعطاء، ويشير علماء النفس إلى أن معظم النرجسيين عادة يملكون بعض . وأحياناً . كل الصفات المرافقة لهذا الخلل وهي:

. عدم قدرة النرجسي في الحفاظ على العلاقات الطبيعية.

. نقص الوعي النفسي، وتجاهل الخلل المرافق.

. صعوبة في إبداء التعاطف، وعدم القدرة على التفاعل العاطفي.

. عدم القدرة على التمييز بين الذات والآخرين.

. فرط الحساسية لأي انتقادات أو إهانات أو شتائم متخيلة، والشعور بالعار بدلاً من الشعور بالذنب.

. لغة الجسد المتعجرفة والحركات المصطنعة الدالة على النفور وعدم الرضى.

. الإطراء الزائد تجاه الناس في محاولة للحصول على المديح البديل، وكرهه لأولئك الذين لا يتفاعلون مع نشاطه السلوكي.

- استخدام الأشخاص الآخرين دون النظر في تكلفة القيام بذلك.

- التظاهر ليكون الشيء أكثر أهمية مما هو عليه بالفعل.

- المفاخرة والمبالغة في الإنجازات حتى لو كانت بسيطة، وادعاء «الخبرة» في أشياء كثيرة.

- عدم القدرة على النظر إلى العالم من منظور الآخرين، أو التفاعل معهم.

- فقدان الإحساس بالندم والامتنان.

وقد صُنفت الأعراض النرجسية حسب علم النفس التخصصي الحديث إلى سبعة بنود أساسية، أو ما تسمى «خطايا النرجسية السبع» وهي:

- الخزي أو العار: هو الشعور الذي يتربص تحت كل الشخصيات غير الصحية المصابة بالنرجسية، وعدم القدرة على معالجة العيب بطرق صحية.

- التفكير السحري: النرجسيون يرون أنفسهم أفضل، وذلك باستخدام التشويه والوهم المعروف باسم «التفكير السحري» وأنها تُستخدم أيضاً لتفريغ العار بإسقاطه على الآخرين.

- الغطرسة أو التكبر: النرجسي الذي يشعر بالدونية أو تقلص الحجم الاجتماعي، يسعى لإعادة نفخ نفسه بالحط من أشخاص آخرين أو إهانتهم.

. الحسد: النرجسي يحاول تأمين الشعور بالتفوق في مواجهة قدرات شخص آخر متفوق باستخدام الازدراء للتقليل من مكانة ذلك الشخص.

. الاستحقاق: النرجسيون لديهم توقعات غير معقولة من معاملة تفضيلية خاصة والامتثال التلقائي لهم، لأنهم يعتبرون أنفسهم الخاصة، ويعتبر عدم الامتثال هو هجوم على تفوقهم، ويُعتبر مرتكب الجريمة شخصاً «أخرق» أو «صعباً» والتحدي لإرادته يسبب إصابة النرجسية التي يمكن أن تؤدي إلى الغضب النرجسي.

. الاستغلال: يمكن أن يتخذ أشكالاً كثيرة، ولكن دائماً ينطوي على استغلال الآخرين دون اعتبار لمشاعرهم أو مصالحهم، وفي كثير من الأحيان يكون الشخص الآخر في موقف الخنوع من الصعب أو حتى من المستحيل أن يُبدي أي مقاومة، وأحياناً أخرى يكون الخنوع افتراضياً أكثر من كونه حقيقياً.

. الحدود السيئة: النرجسيون لا يعترفون أن لديهم حدوداً، وأن الآخرين منفصلون وليسوا امتداداً لهم، ووجود الآخرين إما لتلبية احتياجاتهم أو قد لا يوجدون على الإطلاق، ويتم التعامل مع أولئك الذين يقدمون الخدمات للنرجسي كما لو كانت جزءاً من النرجسي بذاته، ومن المتوقع أن ترقى إلى مستوى تلك التوقعات، وفي ذهن النرجسي لا توجد حدود بين الذات والآخر.

معاييرُ اضطرابِ الشخصيّةِ النرجسيّةِ

رغم أن معظم الأفراد لديهم بعض الصفات النرجسية، فإنه يمكن لمستويات عالية من النرجسية أن تُعبّر عن نفسها في شكل من المرض واضطراب الشخصية النرجسية، حيث يغالي المريض بقدراته، وتكون لديه حاجة مفرطة للإعجاب والتأكيد، ويعاني بعض النرجسيين من صعوبة الدخول في العلاقات العاطفية، وتجارب الحب والعشق.

ويُعدّ اضطراب الشخصيّة النرجسيّة أحد أنواع الاضطرابات النفسيّة، وهو يَحدّ من قدرة المُصاب في الكثير من الأمور اليومية السلوكية أو العقلية، مثل العمل وتكوين العلاقات والتّعامل مع الانتقاد، ويحاول عادةً احتكار المُحادثات، والتقليل من شأن المُحيطين، فيُصوّرهم أقلّ قيمةً، وقد يعمل على احتقارهم، ليَظهر أفضل منهم، وعندما لا يشعر بالكمال قد يُصاب بالاكتئاب.

وتشمل معايير اضطراب الشخصيّة النرجسيّة عدّة أمور واضحة، وقد يظهر أنّ بعض هذه المعايير لاضطراب الشخصيّة النرجسيّة تُشبه الثّقة بالنّفس، لكنّ هذا غير صحيح، فالاختلاف الحقيقي بينهما هو في تخطّي المُضطرب لهذه المرحلة . مرحلة الثّقة . وتفكيره بأنّه ذات قيمة أفضل من قيمة الآخرين.

عوامل الخطر في اضطراب الشخصية النرجسية:

يُعدّ اضطراب الشخصيّة النرجسيّة اضطراباً نادراً، لكن قد تظهر سمات النرجسيّة خلال مرحلة الطّفولة أو المُراهقة، وقد لا يعني ذلك أنّها ستستمر لتتطوّر إلى اضطراب الشخصيّة النرجسيّة، حيث يُؤثّر اضطراب الشخصيّة النرجسيّة على الذّكور أكثرَ منَ الإناث، وغالباً ما يبدأ في سنّ المُراهقة، أو مرحلةِ البلوغ المُبكّر لديهم، وعلى الرّغم من أن سببه غير معروف بدقة، لكن يعتقد بعض الباحثين أن الأطفال المُعرّضين للخطر هم القابلون بيولوجياً لذلك. وراثيّاً ونفسيّاً. والمُعرّضون لأساليب تربية بالغت في تأكيد خصوصيتهم وتميُّزهم كأطفال، وقد تكون انتقادات المخاوف والفشل كذلك، فالطّفل قد يُخفي تدنّي احترام الذّات من خلال تطوير شعورٍ سطحيّ بالكمال والسّلوك الذي يدل على الحاجة إلى الإعجاب المُستمرّ.

ومُضاعفات اضطراب الشخصيّة النرجسيّة قد تتطور إلى سلوك نفسي. عقلي إذا تُرِكَت دون علاج أو مراقبة، فيُمكن أن تشمل ما يأتي:

- صعوبات في العلاقات الاجتماعيّة.
- مشاكل في العمل أو المدرسة.
- الاكتئاب.
- تعاطي المخدّرات أو الكحول.
- أفكار انتحاريّة، أو مُحاولات حقيقيّة بالانتحار.

ويتم تشخيص اضطراب الشخصيّة النرجسيّة على عدّة أُسس وقواعد سلوكية ناتجة عن نشاطٍ نفسي مضطرب منها:

- الأعراض والعلامات.

- التقويم النفسيّ الشامل الذي يشمل الإجابة عن أسئلة مُحدّدة باستبيانات خاصّة.

- اختبار بدنيّ، وفحوصات للتأكّد من عدم وجود مشكلة عضويّة تُسبّب الأعراض.

- بعض ملامح وسِمات اضطراب الشخصيّة النرجسيّة مُماثل لاضطرابات شخصيّة أخرى، لذلك من المُمكن أن يكون التّشخيص لأكثر من اضطراب واحد «متلازمة» في نفس الوقت.

ويتركز علاج اضطراب الشخصيّة النرجسيّ على العلاج النفسيّ.

وهناك ما يعرف أيضاً «الحب النرجسي» وصاحبه ذاك الشخص الأناني الذي يحب ذاته ويجمع بين أكثر من نوع من أنواع الحب، والشخص النرجسي بوجه عام يميل إلى السيطرة وإغواء الطرف الآخر وحب الامتلاك، وهو بخلاف الحب الاستحواذي الذي قد يرضى بعدم السعادة أو الارتياح مقابل ديمومة الشعور العاطفي الداخلي، في حين أن النرجسي لا يسمح لأي شيء أن يؤثر على سعادته وحالة حبه لنفسه.

ومدمن حب الذات النرجسي يختفي وراء ستار التودد والملاطفة، لكنه في الوقت نفسه يعكس سلوكاً فوقياً، ويستمر في هذا السلوك إلى أن

تظهر الحاجة لدى الطرف الآخر في العلاقة بالفرار وتركه، حينها يعود إلى الملاطفة والملاينة المبالغ فيها، وبمجرد الإحساس بهذه الرغبة في الفرار يحدث لديه خللاً وارتباكاً نفسياً يدفعه إلى التفكير في استخدام كل الحيل للتمسك بالعلاقة، حتى وإن اضطره الأمر إلى استخدام العنف.

وتسيطر على النرجسي الغيرة والحسد من الآخرين، ويتمنى لهم المرض والفقر والفشل، كما يكون أنانياً ومعادياً للمجتمع والجماعة التي يتعامل معها، وأما عكس ذلك فإذا وجد من يُشبع رغبته في المدح والإطراء فرغباته السلبية نحو هؤلاء تتغير، ويقربهم إليه كنوع من التعويض.

فالحب النرجسي هو حبٌ أناني للذات وليس للآخر، يعتمد على الأخذ فيحيل صاحبه إلى فردٍ ذي شخصية دوامية تبتلع ما يحيط بها، فينصب كل ما حوله في مصلحته الشخصية.

من هنا نستطيع أن نكشف خفايا الشخصية النرجسية ضمن الأسطورة والخطوط العامة لحركة البطل الرئيسي فيها، مع العلم أن بعض الصفات لنركسوس كانت غير هذه الموجودة ضمن الاضطراب النفسي، فنركسوس لم يتقرب من إيكو لأي غرض أو غاية ينشدها، وبالمقابل لم يلتمس الحاجة من عند أحد من معارفه أو محيطه، فقط كان عبارة عن شخصية بلورية يتمتع ويستمتع بمحبة الآخرين له.

ونتابع أحداث الأسطورة عند المرحلة الثانية وهي مرحلة العقاب،

فكما ذكرنا سابقاً في هذا البحث أن كل أسطورة مقسومة إلى عدة محاور أساسية وهي غالباً:

- البداية والتقديم التمهيدي لبيئة الأشخاص وماهيتهم: مثل ذكر البيئة والحالة الطبيعية، ذكر الأشخاص المحصورين في الحدث الأول «مولدي أحداث باقي الأسطورة» وهم بمثابة الآباء.

- الحدث الأول: الذي يولّد مجموعة أحداث وشخصيات تدفع إلى نقاط ارتكازية ومحاور تمتد إلى بداية الحدث الثاني، ويعتبر الحدث الأول أغلب الأحيان ثانوياً، وهو بمثابة واسطة العقد في الربط بين التمهيد والخاتمة.

- الحدث الثاني وهو الحالة الأخيرة من الأسطورة، وقد يكون بمثابة النتيجة النهائية، وغالباً ما يكون عبرة أو محاكمة ينتج عنها سلوك بشري، يتّبعهُ أتباع الأسطورة في شعائر وتصرفات.

عاقبت الآلهة نركسوس لإقدامه على إذلال إيكو بهذه الطريقة، وكانت النتيجة الحتمية لتصرفه هو الموت بعد المرور بحالة من العذاب الذي افترضته الرواية في سياقها الرومانسي العذب، وقوعه في الحب والحرمان من هذا الحب والنهاية بموت زؤام، وقد كانت فكرة الحب أو العاطفة لدى الإغريق كما باقي العالم القديم ذات بعد فلسفي روحي قد يتجاوز حدود المعقول، فقد ذُكرت أسطورة الحب في حضارة الإغريق القديمة والتي أُخذت منها أسطورة الحب عند الرومان:

إله الحب لدى الإغريق هو الطفل الإله «كيوبيد» وهو ابن «أفروديت»

إلهة الخصب والجمال، وقد تميز هذا الإله بجماله، لأنه في هيئة طفل صغير، وكان يحمل معه دائماً كنانة الأسهم وقوسه الذي كان يوجهه إلى أي بشري، فيقع في الحب سواء أكان ذكراً أم أنثى، وفي إحدى المرات جُرح بشكل خاطئ بأحد سهامه عندما كان يوجهه إلى فاتنة تدعى «بسايكي» فوقع بحبها، ووقعت هي بحبه أيضاً، ولكن كيوبيد خاف من غضب أفروديت التي طردت الفتاة من حماها، فأمر والد بسايكي أن يهرب بها، ويخفيها في جزيرة مرعبة، وألا تحاول السؤال عنه أبداً، ولم تستطع بسايكي إخفاء لوعتها على فقد حبيبها، فزاد عذابها وأنينها، فقام كيوبيد عطفاً عليها بإخبار والدها أنها ستتزوج من شخص يظهر في السماء ولا يجب أن تراه، ولكن فضولها وخوفها من أن تكون قد تزوجت وحشاً كعقوبة من أفروديت جعلها تشعل القنديل في إحدى الليالي بينهما، فعرفت أنه حبيبها كيوبيد، وبذلك زاد ولهها له، وبعد عدة محاولات منها وأكثر من مغامرة استطاعت أن تنال رضى ومباركة أفروديت بزواجها من ولدها إله الحب كيوبيد.

فالحب كان مختلطاً بأمر لا يجب تجاهله أبداً، فلا يتم حب بين أي اثنين إلا بعد مجموعة من الأمور العالقة، والاعتقاد السائد وقتها أن الحب لا بد أن يمر بحالة من الحرمان، لينضج في صدر المحبين، باعتبار أن الغريزة الجنسية كانت تُشبع وبشكل شبه اعتيادي، فالرجال كانوا يرتادون الحانات التي تقدم فيها النساء أجسادهن للمتعة، غير من كان منهم يمتلك الجواري والعبيد، والنساء كن يقدمن أجسادهن في معابد الخصب ومواسم الجنس والبغي المقدس، فكانت علاقة الحب الروحي تحتاج لحالة من النضوج الواعي الذي لا يتولد أو يأخذ شكله الطبيعي

والصادق دون العناء والحرمان، وهذا ما كان في حالة إيكو مع نركسوس، أحبته، وعانت في حبه إلى أن أهانها، وهو أحب صورته وعانى من حبها إلى أن تأكد من فقدها وعدم مبادلته بالغرام الجياش في صدره حينها، عندما كانت تهرب الصورة من الماء إذا ما حاول لمسها، فانتهت حياته على ضفاف الجدول إلى قدره المحتوم «الموت».

الموت والبعث، وهو المحور الأساسي في الأسطورة، فلولا بعثه بعد الموت لما بقي في أذهان وقلوب أتباعه قروناً طوالاً، حيث اختلفت نظرة الثقافات حول العالم للموت والبعث، فبعضها يؤمن بالثواب والعقاب واليوم الآخر، وبعضها الآخر يعتقد أنها حياة مطابقة لما عشناه سابقاً دون جزاء، واتفق آخرون أن الحياة الطيبة تُهدي للإنسان حياة مريحة في العالم الآخر، وإن لم تؤمن بالعذاب الحقيقي، كذلك كَرمت الحضارات القديمة في مجملها جسد الإنسان، وقدست مراسم وفاته، اعترافاً بالفترة الحافلة التي عاشها، وإيذاناً بمرحلة أخرى غامضة.

وسنعرض أفكار بعض الحضارات عن الموت والبعث، لنستوفي فكرة الموت والبعث في أسطورتنا هذه:

- أولاً: الحضارة الصينية:

تُعدّ الحضارة الصينية واحدة من أقدم الحضارات التي مارست الشعائر الدينية ومنها الدفن، إذ تعود ممارسته إلى عام ٥٠٠٠ قبل الميلاد، والتي آمنت أيضاً بالحياة بعد الموت، ومع ذلك لم تؤمن بفكرة العدل والمساواة فيها، إذ ينتقل الملوك إلى الجنة الحقيقية الكبرى

على عكس عامة الناس الذين ستعود أرواحهم في أجساد أخرى للحياة «التقمص» أو يبقون في جنة أقل منزلة من منزلة الملوك، كذلك ينتحر العبيد والخدم للدفن مع أصحابهم المتوفين من الأسر الغنية، ويرتكز مفهوم الحضارة الصينية عن «الآخرة» على خلائط من الديانات الشعبية الصينية، مثل التاوية «الدواسية» والبوذية[1]، وذُكر في الفلسفة الصينية القديمة عن الحياة بعد الموت:

«إنها رحلة تعني التغيير، وهي هجرة تلك الروح من مكانٍ إلى آخر»

وحسب أغلب الأساطير الصينية يعتقد أن الروح تؤخذ في لحظة الموت عبر رسول إلى إله الجدران والخنادق «تشنغ هوانغ» الذي يُدير بدوره جلسة استماع أولية تَمثُل فيها روح المتوفى ليتقرر مصيرها، فإن كانت الروح فاضلة خيرة تذهب مباشرة إلى واحدة من الجنات العديدة التي تتفاوت في المرتبة، أو إلى مسكن الخالدين، أو إلى المحكمة العاشرة من الجحيم، وبعد ٤٩ يوماً ينزل الخُطاة إلى الجحيم، الواقعة عند قاعدة جبل ميرو، ويخضعون لفترة محددة من العقاب في مستوى واحد أو أكثر من الجحيم والتي قد تُخفّض مدتها برحمة من الإله «تي تسانغ» وعندما تتم الروح مدة عقوبتها وجزائها كاملة، تشرب النفوس الخالصة إكسير النسيان استعداداً للتقمص المقبل، ثم تتسلق الجبل الذي يأخذهم إلى التناسخ أو إلى حسابٍ بديل، ويُقذفون من فوق جسر الألم في نهر الحياة، حتى يصلوا إلى الحياة الجديدة.

---

(١) للتوسع في دراسة الديانات القديمة راجع مؤلفي «الحقيقة السوداء» دار أكتب للنشر، مصر ٢٠١٧ صفحة ٢٢.

وفكرة التناسخ والتكرار هي حالة من الوعي المعرفي أو الخلود الفكري، وتشابهت مع الإنجيل «العهد الجديد» والتوراة «العهد القديم» وفي القرآن الكريم الذي نزل على لسان الخالق الأعلى جل ثناؤه وتعالى بهاؤه، حيث قسّم الصينيون الحياة إلى ثلاث نقاط أساسية وهي:

- النيرفانا: وهي الانعتاق الكلي والتحرر من سطوة التناسخ والتكرار، وما يقابلها في القرآن بشكل عقلاني هو الجنة ونعيمها الذي لا يعلم أحد مقداره وماهيته والخلود فيها:

﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا * حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا * وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا * وَكَأْسًا دِهَاقًا * لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا * جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا ﴾[1]

- الكارما: الفعل ورد الفعل وما تجنيه النفس على مدار حيواتها، فترتقي فيه أو تنحط، وهو معنى الحساب والثواب والعقاب على الأعمال:

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ﴾[2]

- التناسخ: العودة بعد الموت إما بالجسم أو بالروح، وفي القرآن الكريم البعث بعد الموت في خلق جديد:

﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ *

---

(١) سورة النبأ من الآية ٣١ إلى الآية ٣٦.

(٢) سورة الجاثية الآية ١٥.

قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾[1]

ـ ثانياً: الحضارة الفرعونية:

آمن الفراعنة بفكرة الحياة بعد الموت، لذلك حنطوا أجسادهم، وجهزوا مؤناً كافية، من أغذية وأوانٍ فخارية لتساعدهم خلال الرحلة التي سيجتازونها إلى العالم الآخر والتي كانت تتم مراسمها «الدفن» بحالة عالية من الخشوع والقدسية البالغة والاهتمام الشديد، إذ كان إله وحارس الموتى «أنوبيس» صاحب الجسد البشري والرأس لابن آوى.

تتضمن الرحلة المرور بعدة بوابات وحراس مرعبين، يجب على الميت اجتيازها للوصول إلى مرحلة الحكم النهائي المؤلفة من ٤٢ قاضياً في المحكمة الإلهية التي يترأسها الإله «أوزوريس» لمحاسبتهم على ما فعلوه في الدنيا، ويجب أن يعرف الميت الكلمات الصحيحة التي يجب أن يستخدمها مع كل قاضٍ، وهذا بمساعدة كتاب الموتى الذي يُدفن معه، ليضمن المرور بسلام، وإن لم يكن بريئاً تماماً.

وفي المرحلة الأخيرة وهي الميزان «وزن القلب» الذي يحتوي على جميع أعمال المُتوفى في الحياة، ويوزن مقابل ريشة الإله «معت» والريشة رمز للحقيقة والعدالة، وتساعد في تحديد ما إذا كان الشخص المُتوفى فاضلاً بالفعل أم لا، فإذا تبين أن القلب أثقل من الريشة كان يُلقى به في الظلام فوراً دون انتهاء المحاكمة، أما القلوب الأخف وزناً من الريشة فيُرحب بهم الإله «أوزوريس» في عالم الآخرة ليعيشوا في الحقول

---

(١) سورة يس الآية ٧٨ ـ ٧٩.

والمحاصيل التي تحتاج إلى عناية، والسماء الزرقاء والأنهار، مع رحلات السفر في القوارب مع الآلهة للعبادة.

- ثالثاً: الحضارة السومرية:

يعتبر السومريون الموت مرحلة انتقالية يتحول فيها الإنسان من حالة وجود مادي إلى حالة وجود روحي، لكن لا تنتقل الروح مباشرة إلى العالم الآخر، بل يجب عليها أن تمر برحلة شاقة من أجل الوصول، والشرط الأول لبداية الرحلة والوصول بسلام هو الدفن بطريقة لائقة، وتنفيذ الطقوس الجنائزية اللازمة.

يُطلب من الروح العبور من خلال الأماكن التي يسكنها الشيطان، وتمر فوق نهر «هابور»[1] وتعترف أمام البوابات السبع للمدينة بإذن من حارس البوابة، وعندما تصل الروح إلى مدينة الموتى تتحدد حياتها هناك طبقاً للوضع الاجتماعي للمُتوفى عندما كان على قيد الحياة، والرعاية التي تلقاها جسده بعد موته، والتمثال المتواجد على القبر.

وذكرت بعض النصوص في بلاد ما بين النهرين مثل ملحمة جلجامش وإنكيدو أن عدد الأطفال والنسل يؤثر أيضاً في وضع المُتوفى بالآخرة، حيث يجب ضمان وجود عدد كبير من العائلة، لضمان أداء الطقوس الجنائزية اللائقة.

- رابعاً: حضارة الأزتك:

(١) النهر الذي تعبره الأرواح تتصل إلى بوابات العالم السفلي.

ترى حضارة الأزتك الحياة بعد الموت بشكل مختلف على خلاف الحضارات القديمة، إذ تعتمد حياة الفرد بعد الموت والمكان الذي سيكون فيه على طريقة وفاته وحادث موته:

. فالمحاربون الذين قُتلوا في المعارك، أو من ماتوا في التضحيات الدينية يلقون مصيراً جيداً، فتذهب أرواحهم إلى جنة الشرق، ليشرقوا مع الشمس كل صباح، أو ينضموا لإله الحرب «يتزيلوبوتشتلي».

. النساء اللواتي لقين حتفهن خلال الولادة يحظين بالشجاعة والشرف، مثل المحاربين الذين لقوا حتفهم في المعركة، وتنتقل أرواحهن مباشرة إلى الغرب، لينضممن إلى غروب الشمس في المساء.

. الأشخاص الذين لقوا حتفهم بسبب البرق أو الغرق أو أمراض معينة أو ماتوا بطريقة عنيفة مثل القتل أو حادثة ما، يذهبون إلى جنة «تلالوكان» في الجنوب والتي يرأسها الإله «تلالوك» وتقع ضمن الجنان الثلاث عشرة في ثقافة الأزتك.

. الأشخاص الذين ماتوا بسبب عدة أمراض معاً أو جراء الشيخوخة ينتقلون إلى «ميكتلان» في الشمال، وهو العالم السفلي في الأزتك، وتعاني خلالها الأرواح من الطبيعة القاسية والجفاف والعطش، ولتصل إلى المستوى التاسع الأكثر راحة من المراحل السابقة يجب عليهم أن يجتازوا عدة مغامرات صعبة.

ويوضح تصنيف حضارة الأزتك للمتوفين نظرتهم نحو الحياة،

إذ يوجد هناك قدر أكبر من الاحترام للأشخاص الذين لقوا حتفهم مبكراً، وعانوا في الحياة ليصبحوا من الشرفاء، عوضاً عن الذين تجنبوا هذه النهايات الأليمة وماتوا بسلام في سن الشيخوخة، هذا لأن حياتهم كانت تعتمد على الغزو والحروب الدموية، فقام الشامانات بتقديس الموت المبكر والقتل في ساحات المعارك.

- خامساً: الهنود الحمر:

تختلف معتقدات سكان أميركا الأصليين «الهنود الحمر» عن الحياة الآخرة اختلافاً كبيراً من قبيلة إلى أخرى، وذلك لعدد القبائل الكبير المنتشر على رقعة القارة والذي يقارب ٦٠٠ قبيلة، وهذا عند وصول الإسبان إليها، حيث يعتقد الهنود الحمر في مناطق السهول أن الحياة بعد الموت ما هي إلا استمرار للحياة الأولى، إذ ينضم المُتوفى إلى عائلته في العالم الآخر، وتمضي حياتهم هناك بالصيد الذي تشتهر به السهول، وهو إحدى سمات الحياة الأخرى، وهنود منطقة «الشايان» يرون أن أرواح الموتى تسافر إلى درب التبانة في طريق يسمى «طريق الراحلين» ثم يصلون إلى معسكر في النجوم، ويلتقون هناك أصدقاءهم وأقاربهم، كذلك اعتقد هنود منطقة «أوماها» أنه لا توجد مكافآت كبيرة أو عقوبات بعد الموت بل امتداد للحياة العادية لا أكثر، ورأى هنود «ناراغانزيت» أن الموت انتقال بين عالمين، وفي وقت الوفاة تترك الروح الجسد لتنضم إلى نفوس الأقارب والأصدقاء في «كوتانتويت» وهي المدينة التي تعيش فيها أرواح الأسلاف والأجداد حياة مماثلة على الأرض، ويجب أن تمر الروح أولاً عبر بوابة يحرسها كلب حيث اعتبر الكلب رسول عالم الموت

في أكثر الحضارات القديمة، لتصل إلى الجنة دون قلق أو ألم، وتمتلئ المدينة بمخازن من الذرة والفاصولياء والفراولة دائماً، حتى مع اختلاف المواسم.

. سادساً: شعوب الإنكا:

حيث قسم شعب الإنكا الكون إلى ثلاثة عوالم وهي:

. جنان باتشا: مكان آلهة الإنكا، حيث يصعد الأشخاص الطيبون بنهاية المطاف إليها في الآخرة ومكانها في قمم الجبال المقدسة في معتقدهم، والتي كانت موقعاً لإجراء طقوس التضحيات البشرية للآلهة.

. كاي باتشا: العالم الأوسط وهو المجال المادي للكائنات الحية وعالم الولادة والموت والتفسخ أي ما يعادل عالمنا المأهول.

. أوكو باتشا: أو تحت العالم والذي يذهب إليه الناس الذين لم يكونوا جيدين بما فيه الكفاية للذهاب إلى المستوى الأول، وهو مرتبط مع الأم الأرض الأنثوية وعظام الأجداد، وتوصف بأنها أرض الألم والمعاناة وبيت الشيطان، والأشرار يُرسلون إليها في الآخرة ليعيشوا هناك.

واخيراً في أسطورة الجمال والصدى نتوصل إلى استمرار الحالة المتفوقة التي تمثل قوة الآلهة على الأرض وبين أتباعها، وهو نرجس «صنيعة الآلهة» والذي رأفت به رغم خطيئته وأخلاقه السلبية، فقد بعثته الآلهة بعد موته، وهذا من المؤكد لتكتمل صورة الأسطورة القدسية بعد أن رأينا أن فكرة البعث والنشور موجودة ضمن الحضارات الموغلة في القدم، فعاد نرجس كائناً حياً متمثلاً بزهرة تحمل اسمه وتوحي بالحزن

والأسى بمظهرها الخلاب ولونها العاجي الهادئ، وهي لا تفارق مكان موت الجسد الآدمي لنرجس، حيث تنمو على ضفاف الأنهار، وحتى إيكو التي تلاشت من الوجود ونثرت جسدها عبر الأثير لمّا تزل إلى الآن خالدة كما نرجس عشيقها، في الأصداء المرتدة من أصوات الطبيعة والبشر، ونهاية هذه الأسطورة المأساوية تجعل من ظاهرتي «الانعكاس» اللتين ربما أرّقتا الشعوب القديمة حينها، فأوجدوا لهما حلاً أسطورياً متماسكاً، انعكاس صورة الأشخاص في الماء، وانعكاس صوت المتحدث في الأثير، ولا سيما في القفار وفي أثناء هدوء الليل، وعالجت الأسطورة فكرة العبودية والرق والموت والبعث والنشور والجنس والحب بطريقة نفسية عقلانية، لتتكامل كبنية أدبية وافية، تترك لنا مجالاً لنسج الخيال في بحرها الساحر الجميل.

النبوءةُ وأبعادُها في الأسطورةِ

تُعدّ النبوءة والرؤيا من الأمور الغامضة والأساسية في البنية الأسطورية لما اعتقده الكثيرون أنها نهاية العالم، ولكن في الأسطورة ومنشئها الأول تُعتبر الرؤيا المستقبلية الإنشاء الأسطوري الأساسي في بنائها، لأن الأسطورة بمجملها هي نص أدبي شعري أو تمثيلي عن أحداث وأشخاص في جو قداسي خارق، ولاكتمال النص الملحمي هذا لا بد من وجود تصور لنهايته، فكانت النبوءة محمولة عن محاور عديدة ومتشعبة في حضارات العالم القديم، وتم إسقاطها وضمّها للحدث الدرامي وإلصاقها به في بعض الأساطير الملحمية والأناشيد، لتحاكي نهاية العالم بعد حين، وعودته إلى برعمه الأول الذي نشأ منه وهو «الآلهة الصانعة».

فما هو الحدث الأسطوري الذي حمل إشارات مستقبلية في التكوين الفكري الديني. الأسطوري الأول؟ هل هو الأسطورة بحد ذاتها أم مجموعة نصوص تبعتها لتؤكد فكرتها؟

سنسافر برحلة في البدايات التكوينية والأساطير الناتجة عنها المتعلقة بالنبوءة، ونقوم بتحليلها لوضع بعض النتائج في هذا الباب، حيث ترتبط فكرة الكون والخلق والتكوين «الماضي» بفكرة الاستمرارية

الحدثية «الحاضر» والنهاية والتدمير الكلي «المستقبل» فإذا نظرنا إلى «الهندوسية الفيشنوية» وهي فرع من الهندوسية فسنلاحظ ارتباط هذه النقاط الثلاث بشكل وطيد، وتوصف كالتالي:

- فيشنو «وِشْنُ»: وهو الإله الأعلى أو الحقيقة العليا، وقد تجسد براهمان في فرع سمارتا أو أدفايتا من الهندوسية، ويوصف «وِشْنُ» في «فيشنو سهاسرانامـا» بأنه الجوهر الموجود في كل الكائنات، ورب الأزمنة الثلاثة «الماضي والحاضر والمستقبل» وخالق ومدمر كل الموجودات، والإله الذي يدعم ويحفظ ويحكم الكون، ويخلق ويطور كل ما فيه.

ويوصف في «البورانا» بأنه بلون السحاب الأزرق الغامق وله أربع أذرع يمسك بها زهرة اللوتس ومشكاة وقوقعة وحلقة، ويوجد وصف لأفاتاراته أي «تجسداته» حيث تمت تسعة من هذه الأفتارات أو التجسدات في الماضي، وبقي تجسد واحد هو «تجسد كالكي» الذي سيتم على أنقاض العالم، وهدف التجسدات تجديد «الدارما» والقضاء على القوى الشريرة، وهو يُعبد في كل تقاليد «ساناتانا دارما» بشكل مباشر أو عبر الأفتارات مثل «راما وكريشنا وناراشيما» والديانات الدارمية هي القانون الطبيعي والترتيب الخفي في الطبيعة والحياة الإنسانية وسلوك المخلوقات والحياة التي تسير وفقاً لهذا النظام والترتيب.

أخلاقياً تعني الدارما الطريقة الصحيحة في العيش أو التواصل الصحيح، خصوصاً ضمن مفهوم حياتي ديني وروحاني، وهي الحقيقة العليا بالنسبة للمدارس والمذاهب الروحية الصوفية، وتشكل الدارما المصطلح الأساسي ضمن الديانات الدارمية الناشئة في شبه الجزيرة

الهندية بما فيها الهندوسية «سانتانا دارما» والبوذية «بوذادارما» والجاينية «جاينا دارما» والسيخية معها، وجميع هذه الأديان تؤكد على أن الدارما هي «الفهم الصحيح للطبيعة» وفيها تبدأ الحياة بالتوافق مع الدارما، وتتطور بسرعة إلى دارما «يوكام وموكشا» أو «نيرفانا» أي التحرر الشخصي.

ووِشْنُ في «التريمورتي» مسؤول عن حفظ العالم، والخلق من اختصاص «براهما» والتدمير وظيفة «شيفا».

وتسمى هذه الأسماء الوظيفية «تريمورتي» وتعني بالسنسكريتية «الأشكال الثلاثة» وهي العقيدة الهندوسية التي تقول:

«إن الوظائف الكونية الثلاث من خلق وحفظ وتدمير مجسدة في براهما وفيشنو وشيفا على الترتيب».

وتدعى هذه الآلهة الثلاثة «الثالوث الهندوسي» أو «الثالوث الأعظم» وتظهر أحد أنواع الرسوم التمثيلية لتريمورتي ثلاثة رؤوس على رقبة واحدة، وغالبا ما تُشاهد ثلاثة أوجه لرأسٍ واحد، ينظر كل منها باتجاهٍ مختلف.

وفكرة التدمير النهائي الذي سينتهي بظهور الإله الصانع عندما يلفظ الكون المادي أنفاسه الأخيرة لم تكن واضحة هنا، باعتبار أن الكون سينتهي من الوجود بكل ما يحويه ليعود العدم الشاسع، ما الفائدة من وجود الخالق في هذه المعتقدات إن بقي وحيداً؟ لم تذكر الهندوسية أو غيرها من أخواتها أن الكون سيُعاد إلى البناء والوجود بصيغة جديدة

إلا بنقطة واحدة، حيث أكدت بعضها أن الكون سيمر بثلاثمئة مليون سنة من الصراع بين الخير والشر، ثم ينتهي الكون بظهور فيشنو الذي سيحسم الصراع لصالح الخير، وسيقوم بإزالة الكون من الوجود، ليعود إلى البرعم الأول الذي تفتّح منه، ثم يتشكل من جديد على نفس الطريقة، والسؤال الأهم:

أين ستذهب الأرواح بفرض أن قانون النيرفانا هو النتيجة والخلاصة لكل تقمصاتها باعتبارها من نفس الكون المادي؟

والإجابة على حسب علم النفس هي فكرة الفناء والرضوخ لسلطة كبيرة جبارة قد تحكم النفس البشرية وتحد من قدراتها الخلاقة، فالعقل الذي يبدأ بكسب المعارف والعلوم لا بد له من محاكمة معارفه بميزان المنطق، وانتشار الشرور التي تأخذ بالاتساع في خضم الفوضى العارمة ولا سيما في الفترة التي كانت فيها الهند والقارة الآسيوية خاصة واقعة تحت رحمة العصابات والجيوش المرتزقة في فترة الأباطرة اليابانيين والصينيين الضعفاء، فكانت الدويلات والمدن بغياب القانون المدني الأساسي تأكل بعضها البعض، وتقع المجتمعات البشرية تحت حكم تلك العصابات التي لا تعرف النظام والترتيب، ومن المعروف أن التنظيمات القوية التي تعتمد على القوة والوحشية في فرض سيطرتها وتسعى لهدف السلطة التي تجلب الثروة والرخاء لا يمكن أن تُنظم أو يطبق عليها قانون ولا سيما إن كان يرجع إلى خلفية سياسية أو دينية أو أخلاقية، فالخلل النفسي يمنع أطراف هذه الجماعات من الالتزام بمحور وقيادة تنظيمية واحدة، وهذا ما ينتج انقلابات وصراعات

داخلية، تتفتق عنها انقسامات ومجموعات مستقلة تقوم بعمليات عنيفة ووحشية، لتؤكد حكمها واستقلالها عن غيرها، وهذه الفكرة التي جعلت النهاية الكبرى والحتمية هي من صنع الإله الذي كان غائباً لدى تلك الشعوب باعتباره إلهاً وضعياً أو رمزياً، يحكم الكبارُ باسمه وبتعاليمه التي وضعوها هم أنفسهم.

وفي التجليات الأساسية التي انتظرها أصحاب النبوءات القديمة والذين حملوا على عاتقهم فكرة النبوءة تجلي «كونفوشيوس» الذي ما يزال في نظر أتباعه غائباً، وسيعود ليحل العدل بينهم وبين أهل الأرض، وعودة «زاراداشت» الذي سيأتي مؤزراً بالقوة المستمدة من الخير المطلق «أهوارا مازدا» ليتغلب على «أهريمان» إله الشر أو الشيطان.

وهناك أيضاً فكرة الخلاص «المانوية» وهي من العقائد الثنائية، أي تقوم على معتقد أن العالم مُركب من أصلين قديمين، أحدهما النور والآخر الظلمة، وكان النور هو العنصر المهم للمخلوق الأسمى الذي نصب الإله عرشه في مملكة النور، ولكن لأنه كان نقياً غير أهل للصراع مع الشر فقد استدعى «أم الحياة» التي استدعت بدورها «الإنسان القديم» وهذا الثالوث هو تمثيل «الأب والأم والابن» ثم إن هذا الإنسان الذي سُمي أيضاً «الابن الحنون» اعتُبر مخلصاً لأنه انتصر على قوى الظلام بجَلَده وجرأته، ومع ذلك استلزم وجوده وجود سمة أخرى له وهي سمة المعاناة، لأن مخلص الإنسان الأول لم يحقق انتصاره إلا بعد هزيمة ظاهرية، ويعد موضوع آلام الإنسان الأول وتخليصه الموضوع

الرئيسي في الميثولوجيا المانوية، فالإنسان الأول هو المخلص وهو نفسه بحاجة للافتداء.

والمانوية أو المنانية ديانة تنسب إلى «ماني» الذي ظهر في عصر «شابور بن أردشير» في بلاد فارس وقتله «بهرام بن هرمز بن شابور» في بابل عام ٢١٦ ميلادي، وقيل إن الوحي أتاه وهو في الثاني عشر من عمره، وكان في الأصل مجوسياً عارفاً بمذاهب الأقوام، وكان يقول بنبوة المسيح ولا يقول بنبوة موسى، فهو يؤكد على تحرير الروح من سجنها الجسدي، فبذلك يمكنها أن تصعد إلى الله، وقد سبب لها تعايشها الطويل مع الجسد نسيان أصلها السامي أي «سبب لها الجهل» والخلاص من الجهل هو المعرفة، ولذلك هو بحاجة للمخلص الذي سُمي «ابن الله» أو «يسوع» والجسد ورغباته شر لأنهما يمنعان الروح من الخلاص، ولذلك تشجع المانوية على الزهد والرهبنة، فنحى مؤسسها منحىً بين المجوسية والمسيحية، وحاول ماني إقامة صلة بين ديانته والديانة المسيحية، وكذلك البوذية والزرادشتية، ولذلك فهو يعدّ كلاً من بوذا وزرادشت ويسوع أسلافاً له، وقد كتب ماني عدة كتب من بينها إنجيله الذي أراده أن يكون نظيراً لإنجيل عيسى بن مريم عليه السلام، وتُحرّم المانوية كل ما من شأنه تشجيع شهوات الجسد الحسية، وبما أن اللحم ينشأ من الشيطان فلذلك كان مُحرماً، فالمانويون أُعدوا ليعيشوا على الفواكه ولا سيما البطيخ، كما أن الزيت مستحسن، أما الشراب فقد كان عصير الفواكه كاختيار أول وفرض اجتناب تناول كمية كبيرة من الماء لأنه مادة جسدية، كما حرّم عليهم قتل الحيوانات والنباتات، ومن يفعل ذلك فإنه سيعاقب بولادته من جديد كالشيء الذي قتله، وفُرض

عليهم التخلي عن الزواج والمعاشرة الجنسية التي تُعدّ شيئاً شريراً، كما عدَّ الإنجاب أسوأ منها بكثير، وحدهم «المجتبون» هم الذين تمكنوا من تنفيذ هذه الوصايا، أما «السماعون» فقد أوكل إليهم القيام بالأعمال المحظورة على المجتبين وتزويدهم بالطعام، ويترافق تناول تلك الأطعمة بإعلان براءة المجتبين من ذلك الفعل، مثال على قول أحدهم عند أكله للخبز:

«لم أحصدك ولَم أطحنك ولم أعجنك ولم أضعك في الفرن، بل فعل ذلك شخص آخر، وأحضرك إلي، فأنا أتناولك دونما إثم»

كما أن ممارسة الاعتراف والتوبة قانون هام، وأتباع المانوية هم من تعارف عليهم أولاً بإطلاق لقب «الزنادقة» حيث وصف المانويين بالزندقة، وكلمة «زنديق» هي كلمة فارسية دخيلة مشتقة من «زنديك» و«زند» وتعني أتباع، وتشير إلى النوع الخاص من التقاليد المكتوبة الثابتة التي تنتمي إلى الشكل المجوسي من شيز، وإنما وصف المانوية بهذا الاسم كدلالة على أنهم أتباع تقاليد هرطقية، إذ إن كلمة زنديق قد حازت على هذه الدلالة في العصور الساسانية، ولأنهم ربُطوا أيضاً مع ديانة المجوس.

وهذا ما جعل المانوية قريبة للغنوصية «العرفانية»[1]، وجميع الديانات الغنوصية تعتمد عقيدة الخلاص «الفداء» وأداة الخلاص هي «غنوص» التي تعني المعرفة أو «العرفان»، وهذه المعرفة تهتم بفهم

(١) وهي مصطلح عام يطلق على سلسلة عريضة من نظم التأملات الدينية التي تتماثل في نظرتها إلى أصل الإنسان، وهي تعد أحياناً هرطقة من الهرطقات المسيحية وهي سابقة على المسيحية.

الأشياء المقدسة وكيفية الخلاص، والغنطسة لا تتحصل عن طريق العقل وإنما من خلال نوع من الإلهام الداخلي.

ونذكر أيضاً أن ماني كان قد درس الأناجيل ورحلة السيد المسيح عليه السلام التبشيرية وحادثة صلبه على قمة الجليل، وأيضاً تعمق في فهم الثالوث المقدس، وهذا جعله يبني أسس دينه الجديد على ركائز المسيحية، لينتشر وجوده أبعد من الأراضي الفارسية المجوسية باتجاه الشرق الأوسط «العراق وشبه الجزيرة وبلاد الشام» حيث ذكر وجود التعميد المانوي والعشاء الرباني أو «الوليمة المقدسة» لتقابل «العشاء الأخير» والتي كانت في نهاية الشهر الثاني عشر، أو نهاية شهر الصوم المانوي، وكان محور هذا العيد هو تذكر وفاة ماني، وبقي أتباعه موجودين في بعض المدن العراقية حتى بعد الفتح الإسلامي المجيد والرسالة الشريفة على لسان خاتم النبيين النبي العربي وبعدها لم يبقَ من تلك الديانات إلاّ البعيد عن الدولة الإسلامية.

وقد منع الإسلام التنبؤ وقراءة الغيب بما أُنزل بشأنه في القرآن الكريم:

﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾[1]

وعن عجز المخلوقين بالتنبؤ والمعرفة:

---

(١) سورة الأنعام، الآية ٥٩.

﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (١)

دودة الكتب حرامية

(١) سورة لقمان، الآية ٣٤.

نبوءةُ اليونانِ الثلاثيَّةُ

الأورانوس. كرونوس. زيوس

في الثقافة اليونانية القديمة هناك فكرة مرعبة عن التنبؤ بالمستقبل، حيث عالجها الراوي الأسطوري بطريقة مخيفة عَبّرت عن الرهبة الداخلية والقلق النفسي من المجهول والمستقبل، فوُجدت الأسطورة الدموية المخيفة «كرونوس» أو «زحل» في الأسطورة الرومانية، وسنذكرها هنا من بدايتها الأولى، حيث كانت الآلهة الأولى في هذه الأسطورة تُعبد في اليونان القديمة قبل حضارة الإغريق، وهذه الأسطورة مبنية على التنبؤ بأقسامها الثلاثة التي سنقدمها وهي:

- عهد أورانوس «السماء»:

أورانوس «السماء» زوج غايا «الأرض» حيث أنجبوا «هيكاتونشيرس» الوحوش ذات ١٠٠ يد و٥٠ رأس والأبناء الأوائل، وهم مخلوقات عملاقة في الأساطير اليونانية اسمهم يعني «مئة رأس وعين» ويملكون مئة يد، فيها قوة لا يمكن تفسيرها، كانوا ثلاثة: «بريارويوس وكوتوس وغيجيس»

وكانت القوى الطبيعية لهم هي الزلازل وأمواج البحر الضخمة. إلا أن أورانوس انزعج من حركتهم وضجيجهم فحبسهم في مكان سري داخل جسد غايا. فسعت الأم لإنقاذ أبنائها، واستنجدت بآخرين من ذريتها ومنهم «السيكلوبس» ولكن «كرونوس» وهو أصغر الجبابرة الاثني عشر وحده لبى طلبها وتحدى أورانوس، فضربه بسيفه المعقوف «هاربيه» وقطع خصيتيه، بينما كان يقترب من غايا، ليفصل بذلك الأرض عن السماء، وولدت الإيرينيات الثلاث «الكتو، تسيفوني، ميجاريا» وهذه الأرواح الثلاث تنتقم ممن قتل أحد والديه من دمائه التي سقطت على غايا، وحوريات شجرة الدردار «الميلياي» من الدماء التي سقطت على صخور الجبال، وخرجت أفروديت من الزبد الأبيض الناتج عن أعضائه التناسلية العائمة على المحيط، وبذلك أصبح كرونوس حاكم الكون وملك الجبابرة، والذي اتخذ أخته «ريا» قرينة له، فأنجبت له ستة أبناء، كان لهم الدور الأكبر في المرحلة التالية من السلطة المطلقة.

لتسهيل وتبسيط الأساطير الثلاث المرتبطة ببعضها عبر ثلاثة عهود سنقوم بوضع مخطط لنسل الآلهة وارتباطها ببعضها ضمن كامل العهود «شجرة عائلة» كي لا تختلط الأسماء معنا:

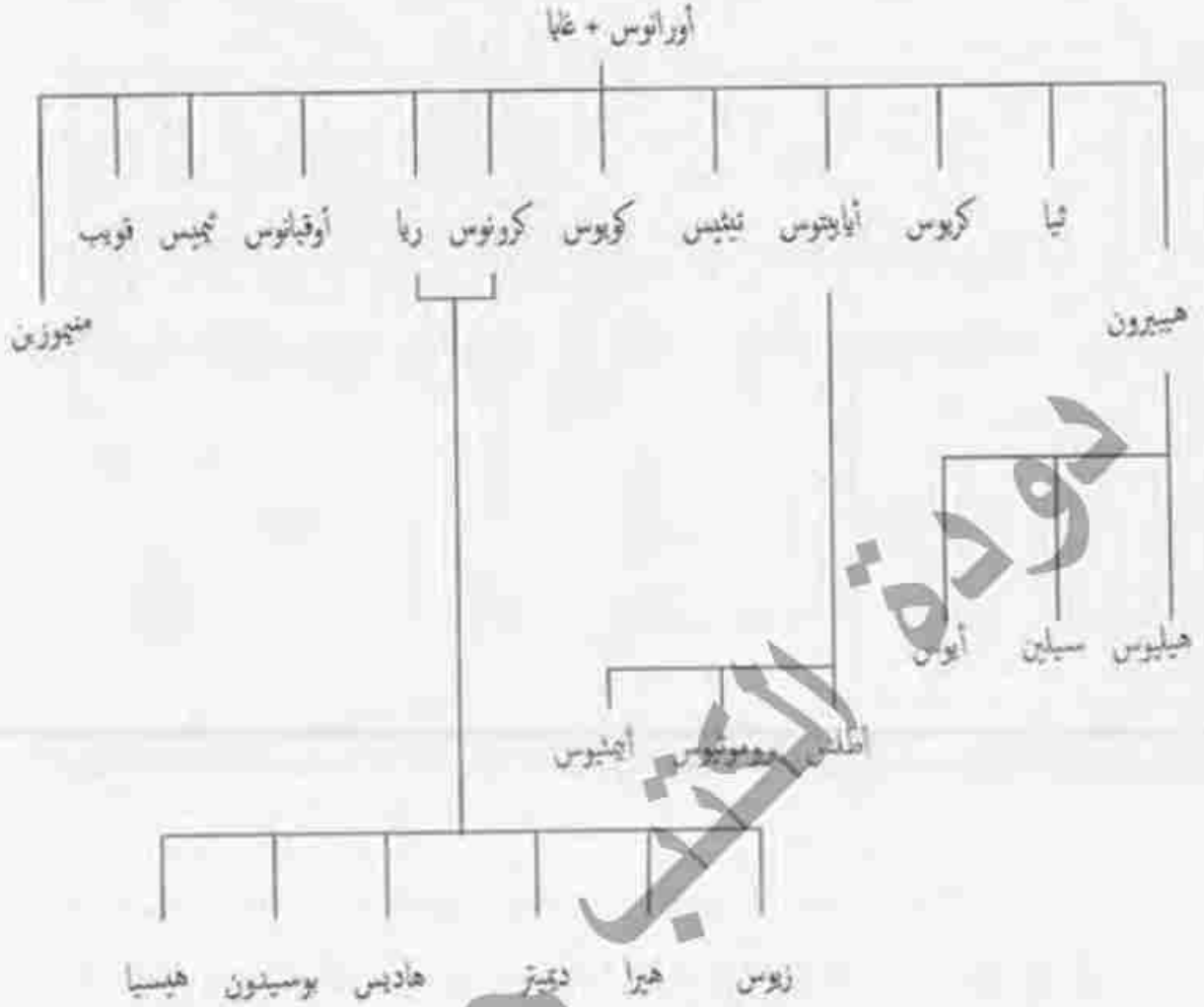

دودة الكتب حرامية

- عهد كرونوس «الزمان»:

يعتبر كرونوس حاكم الكون خلال العصر الذهبي «وهي الفترة الأقدم من تاريخ البشر، حيث عاشوا من غير تعب أو أحزان» ونتابع هنا الأسطورة:

بعد أن أنجب الأورانوس من غايا «الكولكلوبيس والتياتن» ثاروا ضد أبيهم وتمردوا عليه، فغضب منهم وضربهم ضربة قوية أطاحت بهم إلى «تارتاروس»، وهو مكان الظلمة الشديدة البعيد عن عالم الأحياء، ويُعتقد

أن موقعه في العالم السفلي، ويبعد عن سطح الأرض بنفس المسافة التي يبعد بها سطح الأرض عن قبة السماء، حيث تستغرق المسافة بين سطح الأرض وقاع تارتاروس رحلة مدتها تسعة أيام .

حزنت غايا لفراق أبنائها وما آل إليه مصيرهم من النفي والانعزالية، ولكنها لم تستطع معارضة زوجها الأورانوس، ولم تجرؤ على مقاومته في وجهه، فذهبت الأم خلسة إلى أبنائها الآخرين وحرضتهم ضد أبيهم، وحثتهم على مهاجمته والقضاء عليه، انطلق الأخوة بقيادة صغيرهم كرونوس «الزمن» بعد أن زودته أمه بمنجل مصنوع من حجر الصوان، وفي أثناء نوم أورانوس فاجأه أبناؤه وقيدوه وشلوا حركته، صحا من نومه مذعوراً، وحاول المقاومة والتخلص من قيوده، فأسرع كرونوس بغرز المنجل في قلب الأب الغاضب، فاستولت عليه حالة من الخوف والفزع عندما شاهد ذلك المنظر المخيف، ألقى كرونوس بقلب أبيه في البحر، ومعه المنجل الحجري بالقرب من قمة «درييانوم» البحرية.

بعد الانتصار على الأورانوس أسرع كرونوس إلى تارتاروس وأطلق سراح أخوته المحتجزين فيها، فسلّم الأخوة السلطة المطلقة إلى كرونوس الذي قادهم إلى النصر المظفر، وحقق رغبة الأم غايا باستعادة أبنائها، ولكن كرونوس بعد أن شعر بالقوة، وتشبّعت نفسه بشهوة الحكم والسلطة أعاد الكلوكلوبيس مرة أخرى إلى التارتاروس، وألحق العمالقة ذات المئة يد بهم أيضاً دون أي سبب، بعد أن اختار من بين شقيقاته أخته «ريا» زوجة له، وغدا حاكماً مُطلقاً يأمر فيُطاع في مملكته، ولكن نشوة السلطة والقوة أنسته نبوءة والدته غايا التي كان نصها:

«سوف يأتي على كرونوس واحد من أبنائه ليقتله وينتزع العرش منه»

- عهد زيوس «العصر الإغريقي الجديد»:

وضعت ريا لزوجها طفلها الأول، فتذكر كرونوس النبوءة، قام بحمل الطفل بين يديه، وتظاهر بمداعبته، وفجأة ابتلع الطفل أمام أمه، حاولت ريا فعل شيء، ولكنها لم تستطع إلا أن تخضع للأمر الواقع خوفاً من سلطة زوجها وبطشه، وصارت تنجب طفلاً كل عام، وزوجها يبتلع أولاده واحداً تلو الآخر.

أنجبت ريا «هيستيا وديميتر وهيرا وبوسيدون وهاديس» وكان كرونوس يبتلعهم، وفي يوم من الأيام أحست ريا بحركة الجنين في أحشائها، وتذكرت أطفالها الذين ابتلعهم زوجها كرونوس الظالم، وتسللت في الظلام إلى قمة جبل «أوكاديوم» في منطقة «أركاديا» عندما أحست بألم المخاض، ذهبت إلى مكان لم تطأه قدم، ولا يستطيع أحد الوصول إليه، وضعت وليدها، وغسلت جسده بمياه نهر «نيدا» المقدسة، وسلمت الطفل إلى الربة غايا «روح الأرض» بعد أن تعهدت غايا بحمايته، فحملته إلى «لوكتوس» في جزيرة كريت .

هناك اختبأ الطفل زيوس ZEUS في رعاية «أدراستيا» حورية الدردار وشقيقتها «إيو وأمالثيا» الحورية العنزة، واللاتي رد لهم زيوس الجميل فيما بعد بجعل أمالثيا العنزة الحورية نجمة في السماء، وأصبح لها برج يحمل رسمها «برج الجدي» وصُنع مهد الوليد زيوس من الذهب

الخالص، وكان معلقاً بحبال من الذهب أيضاً، ولم يكن يمس الأرض ولا مرتفعاً إلى السماء، وكان بعيداً عن البحر، وهذا كي لا يقوم الوالد كرونوس بابتلاعه كأخوته، وحول المهد الذهبي وقفت جماعة الكوريتيس المدججين بالدروع المعدنية والحراب الغليظة، وكانوا يطلقون صيحات عالية حتى تضيع صرخات الطفل زيوس وسط تلك الضوضاء فلا يسمعه والده كرونوس، عادت ريا إلى زوجها القاسي كرونوس، وقدّمت إليه حجراً ملفوفاً بقماط طفل رضيع، فاختطفه من يدها على الفور، وابتلعه وهو يضحك بشراهة، وبعد فترة شك كرونوس بالأمر وراح يبحث عن طفله ليمسح الأرض بجهاتها الأربع ومن عليها بنظراته الثاقبة، وكاد أن يعثر عليه لولا أن الطفل زيوس كان أذكى من والده، فحوّل نفسه إلى ثعبان وحول الحوريات الثلاث اللاتي يقمن برعايته إلى دببة، عاش الطفل زيوس رغم أنف والده وصار شاباً قوياً، ينتقل من كهف إلى كهف، ليكتشف الدنيا، وهناك قابل «التنينة ميتيس» التي ساعدته في حربه ضد والده، فنصحته أن يذهب إلى والدته «ريا» فقابلها خلسة وقدمته إلى كرونوس كساقي يعد له الشراب، فطلب منه الأب إعداد الشراب له، طلب زيوس من والدته أن تعدّ له كمية من الملح وأخرى من الخردل، فخلط الملح والخردل معاً ومزجهما بالشراب، ثم قدّم الخليط في كأس لكرونوس الذي بقي يشرب كالمجنون، حتى سيطر الشراب على عقله وامتلأت معدته منه، تسرب الملح والخردل في جسده وأمعائه، فبدأت تقلصات بطنه وأحس برغبة شديدة في التقيؤ، ولم يستطع المقاومة فتقيأ كرونوس الثمل، وقذف بكل محتويات معدته الضخمة خارجاً، ليخرج منها الأخوة شباباً مكتملي النمو الواحد تلو الآخر، فرحوا جميعاً

بحريتهم، وقدموا الولاء والطاعة إلى شقيقهم الأصغر زيوس، واختاروه قائداً عليهم في معركتهم ضد الوالد كرونوس وضد حلفائه التياتن الأشرار، استمرت الحرب بين زيوس وكرونوس عشر سنوات، كانت الأم غايا تراقبها متمنية النصر لزيوس وأخوته، وذكرت غايا النبوءة الجديدة وهي:

«إن النصر سيكون من حليف زيوس، ولكن بشرط أن يكسب إلى جانبه أعداء كرونوس الذين ألقى بهم في تاراتاس»

وهؤلاء الحلفاء «كلوكلوبيس والعمالقة ذوو المئة يد» ذهب زيوس خلسة إلى «كامبي» العجوز الشرسة التي تحرس بوابات سجن تارتاروس، وتسلل بالخفاء، وفاجأها بضربة قوية قاضية قتلتها على الفور، أخذ مفاتيح السجن من حزامها، ودخل ليجد الجميع عاجزين عن الحركة ومنهكين من التعذيب والجوع والعطش، قدم لهم الطعام، فتعافت أجسادهم وقويت أطرافهم واشتدت عضلاتهم، أخرجهم من السجن، لينضموا إليه في حربه، فمنحوه سلاحاً فتاكاً هو «الصاعقة» يستطيع من خلاله أن يبعث بالصواعق الحارقة المدمرة التي تستطيع أن تقضي على أعتى المخلوقات وتصرع أقوى المقاتلين، كما منحوا شقيقه هاديس «خوذة الظلام» حيث يستطيع أن يختفي عن الأنظار، ويرى الآخرين دون أن يروه متى وضعها فوق رأسه، ومنحوا شقيقه الثالث بوسيدون «الشوكة الثلاثية» التي يستطيع بوساطتها أن يثير البحار والمحيطات بضربة واحدة منها.

عقد الجميع مجلساً للحرب، وأقروا فيه خطة محكمة للنصر،

وضع هاديس خوذة الظلام على رأسه واختفى عن الأنظار، وأصبح يرى كل من حوله وهم لا يرونه، تسلل إلى حيث كان كرونوس يأخذ قيلولته، اقترب منه دون أن يلفت انتباهه، وسرق أسلحة كرونوس ونقلها بسرعة إلى الباقين، لوّح بوسيدون بدوره بالشوكة الضخمة في الهواء وضرب بها وجه الماء، فهاجت كل البحار والمحيطات، وارتفعت الأمواج، استولت الدهشة على كرونوس في اللحظة التي انطلق باتجاهه زيوس بشراسة، أطلق نحوه وابلاً من الصواعق المتأججة، فأنهاه بسرعة كبيرة، وتكفّل حلفاء زيوس بالبقية، فهشموا رؤوس التياتن حلفاء كرونوس بالصخور، وهزموهم شر هزيمة، ثم أصدروا أحكامهم برئاسة كبير مجمع الآلهة الجديد «زيوس» بأن ينفى كرونوس بعيداً عن الأرض المأهولة تحت حراسة العمالقة.

مجمل هذه الأسطورة هو الصراع على السلطة، والتحالفات المتعددة بين الآلهة أبطال الأسطورة، وهذا الإسقاط المباشر على حالة اليونان في العهد القديم قبل عهد الممالك المدنية «الإغريق» وقبل النهضة المعمارية لعدم ذكر تفاصيل البناء فيها، إذ كانت الصراعات تنشب دائماً فوق الأراضي الممتدة على الشريط الساحلي والمرتفعات الجبلية دون استقرار لأي أحد من الشعوب المتحاربة، فإذا أسقطنا هذه العهود الثلاثة من السلطة في الأسطورة على التاريخ اليوناني فسنجد ثلاث سلطات حكمت فوق هذه الأرض:

١ ـ العصر اليوناني المظلم ١١٠٠ قبل الميلاد.

٢ ـ غزو دوريان ١٤٦ قبل الميلاد.

٣ ـ الغزو الروماني لليونان «معركة كورنث».

كانت كلها المكون الأساسي للشعب الإغريقي الموحد بعد هذه الحقبة من الانقلابات السياسية السلطوية أو ما يسمى «العالم القديم» مع الاحتفاظ بمكانة كرونوس «الزمن» الذي أخفى أولاده في جوفه حيناً وتقيأهم شباباً أشداء، وهذا العالم القديم الذي شمل مجموعة عبادات متفرقة لعدة آلهة متصارعة، بيد أنها كلها متفرعة من مصدر تكويني واحد وهو «الأوليمب» الذي أنتج أفواجاً من الأرباب، ليتصدّروا سدة الحكم المطلق في العالم حينها.

وكانت فكرة النبوءة هي التي تدفع بكل حدث إلى أقصاه، وهذا يجعل نظرة العالم القديم عن النبوءات نظرة سلبية، يرافقها الشؤم والدم والدمار، ولو كانت في جوهرها نبوءة سعيدة أو حالة من التطلع للتجديد «الثورة» على أي من النظم السائدة وقتها سواء كانت هذه الثورة ضد النظم الاقتصادية أو السياسية أو الاجتماعية أو الدينية أو الفكرية حتى.

وقد عالج أكثر فلاسفة اليونان وأصحاب الفكر المتجدد هذا الموضوع بطريقة لا تبعث بالرعب أو الرفض في قلوب الناس عامة، ومثال على تلك النبوءة ما قاله «أفلاطون» عن السلام والتخلص من الأفكار البالية وإحلال العلم والمنطق بدل الجهل والتعصب، ليتطور المجتمع إلى مرحلة مدنية جديدة، وذلك بالعودة إلى ماضٍ في مخيلته، قد يكون غير موجود فعلاً، ولكنه كما اعتدنا من فلسفته الفريدة «إسقاط اللا موجود على الموجود» حين تحدث عن «حضارة أتلانتس الضائعة» في محاوراته

التي كتبها حوالي عام ٣٦٠ قبل الميلاد في أحد كتبه «حوار طِيمَاوُس وحوار كريتياس» وتقول الروايات التي نقلها أفلاطون:

«إن أتلانتس كانت دولة متطورة، شيدت المعابد الضخمة والقصور الفارهة، وغزت عدة حضارات في الأرض شرقاً وغرباً، وكان سكانها يمتلكون العلم والخبرات الفنية التي مكنتهم من تشييد تحف معمارية لم يسبق لها مثيل، أبرزها «المعابد الدائرية الثلاثة» التي اعتبرت العلامة المميزة لها، وقد تعرضت لكارثة طبيعية أدت إلى اختفائها - عقوبة من بوسيدون- مما جعل أقوى الدول في ذلك العصر «الفراعنة» ترسل بعثات البحث عنها، وتختلف الروايات في تحديد الزمن الفعلي الذي وُجدت فيه حضارة أتلانتس، فبعضها يقول: إنها كانت قبل ١٠٠٠٠ عام، وغيرها ٩٠٠٠ عام، وأخرى ٥٠٠٠ عام، ولكنها بمجملها تتفق أنها عاصرت كلا من الحضارة اليونانية والفرعونية، وذلك حسب المخطوطات التي وُجدت في آثار كلتا الحضارتين، ومن غير المعروف طبيعة العلاقة الدولية بينهم، هل كانت سلماً أم حرباً.

تجلّياتُ النبوءةِ في الأدبِ العالميّ

في الفترة المظلمة من العصور الوسطى التي شهدت انتشار السحر والشعوذة، والتي بدأت فيها الكنيسة الأوروبية بعمليات حرق وقتل كل من أُشتبه بأنه يقوم بهذه الممارسات، فيقع تحت قبضة محاكم التفتيش، حتى بامتداد الفكر العلمي بقيت الإعدامات قائمة فترة طويلة، تبعتها أمراض وويلات كثيرة على مساحة القارة الخضراء التي أنتجت رغم هذه الأحداث الدموية أهم المتنبئين الذين كتبوا ودونوا أحداثاً تُعدُّ مهمة في التاريخ الحديث، مثل الفرنسي «نوسترادتموس»[1] الذي أحدث فرقاً في علم التنبؤ وقراءة الأحداث، ولم تكن تعتمد النبوءات على الكتب والتدوين وحسب، بل كانت متشعبة في الفن والأدب والشعر، ويُعتبر الشعر الملحمي «الكوميديا الإلهية» التي ألّفها دانتي[2] ما بين ١٣٠٨ - ١٣٢١ من أهم وأبرز الملاحم الشعرية في الأدب الإيطالي، وقال الكثيرون إنها من أفضل الأعمال الأدبية على المستوى العالمي، تحتوي على نظرة

---

(١) ميشيل دي نوسترادامويس ١٥٠٣ - ١٥٦٦ صيدلاني ومنجم فرنسي وقد نشر مجموعات من النبوءات في ١٥٥٥ والتي أصبحت منذ ذلك الحين مشهورة في جميع أنحاء العالم ويحتوي الكتاب للنبوءات بالأحداث التي اعتقد أنها سوف تحدث في زمانه وإلى نهاية العالم الذي توقع أن يكون في عام ٣٧٩٧ ميلادية وكان يقوم بكتابة الأحداث على شكل رباعيات غير مفهومة.

(٢) وهو شاعر إيطالي من فلورنسا شارك بحماس في الصراع السياسي الذي كان يوجد في وقته، وتم نفيه من مسقط رأسه. فكان مؤيدا نشطا للوحدة الإيطالية. أعظم أعماله الكوميديا الإلهية يعتبر البيان الأدبي الأعظم الذي أنتجه أوروبا أثناء العصور الوسطى، وقاعدة اللغة الإيطالية الحديثة. فهي واحدة من الأعمال الرئيسية لعملية الإنتقال من العصور الوسطى إلى عصر النهضة. وتعدّ تحفة من الأدب الإيطالي وواحدة من قمم الأدب العالمية.

بالية مبنية على العناصر المجازية الثلاثة حول الآخرة بحسب الديانة المسيحية «الجحيم والمُطهّر والفردوس» وتطور فلسفة القرون الوسطى في الكنيسة الغربية «الكاثوليكية الرومانية».

وفي الوقت الذي ظهر فيه فن الباروك ظهرت عدة لوحات فنية كانت حينها من اللوحات الرخيصة، حيث لم تلفت انتباه أحد من العامة، ومنها لوحات الشاعر والرسام الإنكليزي «وليم بليك» ١٧٥٧ - ١٨٢٧ التي كانت أعماله تُعدّ غير مهمة، وأحياناً كانت تحُتقَر بوصفها أعمال مجنون، لكنها تُعدُّ الآن من الأعمال الجوهرية في الشعر والفنون البصرية التي تمثل العصر الرومانتيكي برمته، ومن هذه اللوحات: «محاكمة آدم، أصحاب أيوب، سقوط الشيطان».

أيضاً كانت خشبة المسرح الأوروبي من القرن الخامس عشر إلى القرن الثامن عشر مجالاً واسعاً للنبوءة الفكرية، وسنتطرق لإحدى أهم وأجمل المسرحيات التي بنيت على فكرة النبوءة والتكهن، تأليف «وليم شكسبير» وكانت في تركيبها مشابهة للأسطورة القديمة المتعلقة بنفس الموضوع، وأخذت هذه المسرحية من روح الأسطورة، وكانت تمثل رؤية جديدة لها في إطار علاج درامي يحمل الحداثة الكلاسيكية.

مسرحية ماكبث

خلال حكم ملك اسكتلندا العظيم «دنكان» كان هناك لورد مهم اسمه «ماكبث» وكان من المقربين للملك نظراً لما يتمتع به من شرف وشجاعة وإخلاص، ويوماً ما كان ماكبث وزميله «بانكو» عائدين من موقعة كبيرة بعد نصرٍ مؤزرٍ، فشاهدا ثلاث ساحرات، جلودهن شاحبة وملابسهن غريبة، فتقدم إليهن ماكبث وبادرهن بالحديث، ووضعت كل واحدة منهن يدها على فمها بعد أن نادته الأولى باسمه وبلقبه الرسمي «لورد ماكبث جلاميس» فأخذت الدهشة القائد كثيراً عندما وجد أنه معروفٌ من قبل تلك المخلوقات الغريبة، لكن عندما نادته الثانية بلقب «لورد كاودور» والثالثة قالت: «مرحباً بالملك القادم» ازدادت دهشته من هذه النبوءة لمعرفته أن للملك أبناء على قيد الحياة، فلا أمل في وصوله إلى العرش، ثم التفتت الساحرات إلى القائد بانكو، وقلن له كلمات غامضة أكدت النبوءة الأولى: «ستكون أقل شأناً من ماكبث، ولكن ستكون موفور السعادة» أخبرنه بأنه لن يتولى العرش أبداً، لكن أبناءه من بعده سيكونون ملوكاً لإسكتلندا، ثم اختفين في الهواء، فتأكد القائدان أنهن ساحرات.

وبعد أن تجاوزا نصف الطريق قابلهم رسول من الملك، ليُبلّغ

ماكبث أن ملك إسكتلندا خلع عليه لقب «دوقية كاودور» وهذا ما جعله يتأكد أن النبوءة صحيحة، وبدأت النبوءة الثالثة في حكم اسكتلندا تكبر في رأسه ومخيلته، فالتفت إلى بانكو وقال له:

- ألا تتمنى أن يكون أولادك ملوكاً ولا سيما أن ما وعدتني به الساحرات قد تحقق؟

فأجابه بانكو:

- إن هذا الأمل قد يدفعه للتطلع إلى العرش، وأن رسل الظلام «الساحرات» قد يَصدقون في أشياء صغيرة حتى نقوم بارتكاب أفعال شريرة.

لكن كلمات الساحرات الثلاث كانت قد استقرت في أعماق تفكير وعقل ماكبث الباطني، حتى إنه أعرض عن تحذيرات صديقه بانكو، ومنذ ذلك الحين وجّه كل تفكيره في كيفية الفوز بعرش اسكتلندا، وعندما قص ماكبث لزوجته تلك النبوءة الغريبة للساحرات، وكانت زوجته «الليدي ماكبث» سيدة شريرة تطمح في مكانة عالية لنفسها ولزوجها، وتتمنى لو أنها هي وزوجها يصلان إلى هذه المرتبة العظيمة بأية وسيلة كانت، أخذت تناقش ماكبث في ذلك الأمر وتحثه عليه، ودفعته للتفكير في أن قتل الملك أمر ضروري جداً لتحقيق النبوءة، فقام ماكبث بدعوة الملك إلى قلعته المبنية في مكان لطيف، فيه هواء منعش وصحي، حيث أقامت طيور السنونو أعشاشها على الجدران، بصحبة ولديه «مالكولم ودونالبين» ومجموعة من اللوردات والمستشارين لتهنئة ماكبث بانتصاره

في الحرب، وعندما دخل الملك الذي أُعجب بالمكان وبالقدر الكبير من الاهتمام والاحترام والتبجيل الذى لاقته به السيدة المُضيفة «ليدي ماكبث» ونتيجة تعب الملك من رحلته ذهب مبكراً إلى الفراش وبصحبته اثنان من الخدم ليناما بقربه . كما جرت العادة . ووزع الهدايا قبل أن يذهب إلى النوم، ومن ضمنها ماسة غالية إلى الليدي ماكبث تحية لها لما أبدته من كرم الضيافة والترحيب.

وفى منتصف الليل كانت الليدي ماكبث مستيقظة تخطط لقتل الملك بنفسها خوفاً من ضعف زوجها في لحظة التنفيذ، رغم نجاحها في إقناعه، لكنها كانت تشك في إرادته بالتنفيذ، فقامت بالتسلل إلى حجرة نوم الملك، وبيدها سكين حادة، وقد خططت أن يكون الخادمان في حالة سكر وغافلين عن الحراسة، كان الملك دنكان نائماً من تعب الرحلة، وعندما نظرت إليه عن قرب وجدت في وجهه وهو نائم شيئاً ما جعلها تفكر في والدها، فلم تستطع تنفيذ القتل، عادت لتتحدث مع زوجها الذي كان متراجعاً حيال الأمر برمته لوجود عدة اعتبارات تقف الآن ضد هذه الفعلة، ففي المقام الأول هو ليس شخصاً عادياً بل من المقربين إلى الملك، كما أن الملك ضيف في قلعته، وسيكون المسؤول الأوحد عن الجريمة، ورأى أن الملك دنكان ملك رحيم، واضح في خصومته مع أعدائه، ومحب لأعوانه من النبلاء وله بصفة خاصة، هذا إضافة إلى أن الملك كان يخصه دون الرجال جميعاً، فكيف يلوث كل هذا التكريم بدماء جريمة بشعة كهذه؟

اكتشفت الليدي ماكبث أن زوجها بدأ يتحول تجاه الخير، وقرر ألا

يتمادى في هذا الأمر أكثر من ذلك، فبدأت تصب في أذنيه كلمات خبيثة، لتقنعه بوجهة نظرها ووجوب قتل الملك، وأخذت تقدم له المبرر تلو المبرر لكي لا يتراجع عن تحقيق ما وعدته به الساحرات، وأن التنفيذ سيكون سهلاً، وأن هذه الليلة ستسعد باقي لياليهم وأيامهم القادمة بوصولهما إلى العرش والسلطة الملكية، فتناول الخنجر وتسلل بخفة إلى دنكان، وبينما هو في الطريق تخيل أنه رأى خنجراً آخر في الهواء، مقبضه يتجه ناحيته، ونصله يقطر دماً، وعندما هم بإمساكه لم يكن هناك غير الهواء، وأن الأمر ليس إلا تهيؤات نتيجة لما يدور في رأسه المحموم، والمهمة التي ينبغي عليه أن ينفذ فيها عملية الاغتيال، فدخل الغرفة وقتل الملك النائم بضربة واحدة من خنجره، وعندما تأكد من أن الملك فارق الحياة ابتسم أحد الخدم المرافقين للملك وهو نائم، بينما صاح الآخر:

- جريمة...

واستيقظ الاثنان، وشرعا في تلاوة صلاة قصيرة، وقال أحدهما:

- فليغفر لنا الله.

فأجاب الآخر:

- آمين.

ثم عادا إلى النوم مرة ثانية كأنهما لم يريا ما حدث، وحاول ماكبث الذي كان يقف مصغياً إليهما أن يقول «آمين» إلا أن الكلمة وقفت في حنجرته، ولم يستطع أن يقولها رغم أنه كان في حاجة مُلحة للمغفرة، وتخيل أنه سمع صوتاً يصيح:

«لن يذوق ماكبث طعم النوم بعد الآن، لأنه قتل نائماً بريئاً، وهذه سنة الحياة»

وظل الصوت يردد صيحاته في أرجاء القلعة، وعند طلوع الصبح اكتُشفت الجريمة التي لا يمكن إخفاؤها، وأظهر ماكبث وزوجته حزناً كبيراً، وكانت الأدلة ضد الخدم، رغم أن كل الاتهامات الخفية كانت تشير إلى أن ماكبث هو الذي فعلها، لأن لديه من الدوافع القوية أكثر مما لدى الخدم المساكين للقيام بذلك، وهرب ابنا دنكان إلى إنجلترا وإيرلندا، وبهروبهما أصبح العرش خالياً، وتُوّج ماكبث ملكاً، لتتحقق نبوءة الساحرات تماماً وبالحرف.

ومحاكاة المسرحية في هذه الفترة للأوضاع السياسية واضحة تماماً من خلال الملك وأتباعه، ولا سيما أنها كُتبت في القرن السادس عشر، في الفترة التي كانت ترزح فيها إنجلترا وفرنسا تحت حكم البارونات، وكان مرجل الغوغاء والعامية يغلي، ليفجر الثورة الفرنسية التي غيرت الوجه السياسي في أوروبا، وشعور ماكبث بالذنب والإثم جراء فعلته التي لم يمر عليها أكثر من دقائق بسماع صوت التأنيب، وتمثيل الخادمين لطبقات الشعب، من سلطة دينية شرّعت قتل الملك «صلوات الخادم الثاني» إلى العامة الفرحين بهذه النهاية «ابتسامة الخادم الأول» حيث صُور الملك بأنه يُغدق الأموال على رعيته وحاشيته «الهدايا والماسة» متجاهلاً أمر الشعب، وهذا فعلاً تحقق باعتلاء «لويس السادس عشر وزوجته ماري أنطوانيت» سدة الحكم في فترة حكم البرجوازيات والإقطاعات، وقد كانت نظرة شكسبير لهذه الأوضاع ثاقبة بأنها ستفضي إلى ثورة عارمة

وفوضوية تمثّلت بشخص ماكبث الذي وصل إلى الحكم بالخديعة والشر، وأن الثورة ستحصل في إنكلترا وليس في فرنسا، أو أنه لا فرق باعتبار أن الشعبين قد عانيا بعد هذه الفترة القتل والحرب في حرب السنوات السبع، فهل صدق حدس شكسبير إذا ما لخصنا الثورة الفرنسية بقولنا:

«الثورة التي أكلت أبناءها»

من هنا نستطيع القول: إن روح الأسطورة امتدت عبر عصور وأحقاب تاريخية عدة، لتصل إلينا كما هي الآن تحف فنية ولغة راقية وملاحم عن التنبؤ الذي كان يوماً ما السبب في الصراعات الدموية والحروب الكبيرة التي استمرت عدة سنوات «حرب طروادة» لتتحول إلى عيون الأدب الجميل.

الخاتمةُ

في نهاية هذا البحث الذي مررنا خلاله عبر عصور وأزمنة غائرة في القدم، أو ربما تكون فجر التاريخ المدون، نستطيع تقديمه للمكتبة العربية بجهودٍ قمنا بها، وهي متواضعة بالنسبة للكتب والدراسات البحثية في هذا المضمار، سواء أكانت هذه البحوث والدراسات ورقية أو رقمية، وموضحين جانباً آخر من التفكير البحثي يرتبط بعلم النفس الحديث الذي غير زاوية الرؤية لأغلب المسلمات العلمية والتاريخية والثقافية القديمة بعد اعتماده منهجاً تحليلياً مرادفاً للعلوم التطبيقية.

وهذه الجولة في كتب الأدب والمؤلفات اللغوية والفكرية التي عاشت في وجدان الشعوب مُنتقلة من جيلٍ إلى جيل ومصطبغة بروح الجيل التي كانت تعيش فيه، فتأخذ من سماته وصفات زمنه، لتصبح أصيلة فيه بعد أن كانت دخيلة غريبة، وفكرة التماهي والتصالح مع الزمن الذي اتسم بسرعته وثورته الرقمية أصبحت هاجساً لكل مفكري وعلماء العلوم القديمة، والتي بدأت تُصنّف على أنها آداب وعلوم ثقافية جميلة زيّنت جِيد الحضارة عبر مر عصورها.

وإذا عدنا إلى مواضيع البحث في الكتاب نجد أننا أسهبنا في شرح بعضها، وذلك لنمتع قارئنا المتذوق بمطالعة مؤلفنا هذا، وليترك في

عقله ميسماً برّاقاً وذكرى عطرة، إن لم تغنِ معارفه فقد أعادت ذكرها، والأهمُ أيضاً هو التجربة الغنية التي جنيناها في إعداد وبحث وجمع وتحليل مواده، فهذا هو الهدف الأسمى الذي وصلنا له، وهو المعرفة والتعلم والمشاركة في أحداث انقضت منذ بضعة آلاف من السنوات متأملين في صانعيها ومدونيها ومحركيها، وكأننا كنا جميعاً مشاركين في صياغتها التي أعطتنا درساً بل دروساً من اليقين والوعي الذي رشفناه من كأس صُبت فيه خلاصة أفكار عظماء التاريخ منذ بدء البشرية - البدايات التي نعرفها - إلى وقتنا هذا، وقلنا الذي نعرفه، ليقيننا أن ما وصلنا إليه من علوم ومعارف هو غيض من فيض بما عند الله عز وجل في محكم تنزيله:

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنْ الرَّحِيْم

﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴾[1]

صَدَقَ اللهُ العَظِيم

د. أيوب الحجلي

غرايتس / ألمانيا ٧-٥-٢٠١٧

(١) سورة طه، الآية ١١٠.

الكاتبُ في سطورٍ

أيوب الحجلي:

- مواليد ١٩٨١ عمان - الأردن
- دكتوراه في علم النفس ٢٠١٣
- رئيس تحرير مجلة حروف الثقافية - سوريا منذ عام ٢٠١٤
- سفير النوايا الحسنة والسلام بين الشعوب منذ عام ٢٠١٦
- دكتوراه فخرية عن أعماله الأدبية من اتحاد منظمات الشرق الأوسط عام ٢٠١٧

صدر له:

- معتقدات مظلمة - التلمود «دراسة»:

طبعة أولى - دار الحروف / سوريا ٢٠١٢

طبعة ثانية - دار الأيام / الأردن ٢٠١٦

- العبادات الآثمة والتاريخ المُستعر «دراسة»:

طبعة أولى ـ دار الحروف / سوريا ٢٠١٢

طبعة ثانية ـ دار ليليت / مصر ٢٠١٦

طبعة ثالثة دار الأيام / الأردن ٢٠١٧

ـ آلهة الدموع «رواية»:

طبعة أولى ـ دار الحروف / سوريا ٢٠١٣

طبعة ثانية ـ دار الفيروز / مصر ٢٠١٦

ـ تحت ظلال النجوم «مجموعة قصصية» دار كيوان / سوريا ٢٠١٥

ـ أبواب الروح السبعة «رواية»:

طبعة أولى ـ دار أكتب / مصر ٢٠١٦

طبعة ثانية ـ دار أكتب / مصر ٢٠١٧

ـ الحقيقة السوداء والأرض المُحرمة «دراسة» دار أكتب / مصر ٢٠١٧

البريد الإلكتروني

dr.ayuobalhajali@gmail.com

مراجع البحث

- القرآن الكريم.

- الإنجيل المقدس. العهد الجديد / دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط.

- الإنجيل. كتاب الحياة ١٩٨٢.

- الكتاب المقدس التوراة. العهد القديم.

ثلاثة مقالات في النظرية الجنسية. سيغموند فرويد / ألمانيا ١٩٠٥.

- الغصن الذهبي: جيمس فريزر. ترجمة نايف الخوص. دار الفرقد / دمشق ٢٠١٤.

- تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية: مرسيا إلياد. ترجمة عبد الهادي عباس. دار دمشق / سوريا ١٩٨٧.

- قصة الحضارة: ويل ديورانت. دار سايمون وشوستر / الولايات المتحدة ١٩٧٥.

- الكتاب الأحمر: كارل يونغ. ترجمة رنا بشور ومتيم الضايع. دار الحوار / سوريا٢٠١٥.

- العقلية البدائية: لوسيان ليفي برول - الموسوعة العربية الميسرة - دار الشعب / القاهرة ١٩٦٥.

- شرح المعلقات السبع: الزوزني - الدار العلمانية / بيروت ١٩٩٣.

- ألف ليلة وليلة - دار الصادر للنشر / لبنان ١٩٩٩.

- فرائد الآل في سيرة بني هلال: رحاب عكاوي - دار الحرف العربي للنشر / لبنان٢٠٠٥

- السيرة الهلالية: عبد الرحمن الأبنودي - دار أطلس للنشر / مصر ٢٠٠٢.

- الإلياذة: هوميروس - ترجمة ممدوح عدوان - المجمع الثقافي / أبو ظبي ٢٠٠٢.

- البداية والنهاية: ابن كثير - مكتبة المعارف / بيروت ١٩٩٠.

- مقدمة ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد بن خلدون - دار يعرب / مصر ٢٠٠٤.

- معتقدات مظلمة - التلمود: د. أيوب الحجلي - دار الأيام / الأردن طبعة ثانية ٢٠١٦.

- العبادات الآثمة والتاريخ المُستعر: د. أيوب الحجلي - دار الأيام / الأردن طبعة ثالثة ٢٠١٧

- الحقيقة السوداء والأرض المُحرمة: د. أيوب الحجلي - دار أكتب / مصر

.٢٠١٧

- معجم الأساطير: ماكس شابيرو. دار علاء الدين / سوريا ٢٠٠٨.

- علم الأخلاق إلى النيقوماخوس: أرسطو. دار الكتب المصرية / القاهرة ١٩٢٤.

- الجمهورية: أفلاطون. ترجمة د. فؤاد زكريا. دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر / مصر ٢٠٠٤.

- بداية المجتهد ونهاية المقتصد: ابن رشد. دار الحديث / القاهرة ٢٠٠٤.

- الأغاني: أبو الفرج الأصفهاني. دار الصادر / بيروت ٢٠٠٨.

- تفسير الجلالين: الإمام السيوطي. دار الحديث / القاهرة ٢٠٠٤.

- الكوميديا الإلهية: دانتي ألفيري. المؤسسة العربية للدراسات والنشر / بيروت ٢٠٠٢

- مسرحية ماكبث: وليم شكسبير. ترجمة خليل مطران. دار كلمات للنشر والتوزيع / الكويت ٢٠١٢.

المحتويات

- الإهداء ٥
- المقدمة..... ٧
- البدايات الأسطورية..... ٢٠
- علم النفس الأسطوري..... ٤٢
- أسطورة أدون وعشتروت..... ٥١
- التحليل النفسي لأسطورة أدون وعشتروت..... ٥٨
- الدوافع الفطرية الأساسية..... ٦٧
- الدوافع الثانوية المكتسبة..... ٧٦
- الأنثروبولوجيا «علم الإنسان»..... ٧٨
- الجمال والصدى أسطورة نرجس وإيكو «نركسوس»..... ٩٠
- التحليل النفسي لأسطورة الجمال والصدى..... ١٠٠
- الماء في الأسطورة والفكر القديم..... ١٠٢

- اضطراب الشخصية النرجسية وحب الذات المرضي NPD.....١٢٣
- معايير اضطراب الشخصية النرجسية.....١٢٨
- النبوءة وأبعادها في الأسطورة.....١٤٣
- نبوءة اليونان الثلاثية: الأورانوس- كرونوس- زيوس.....١٥٢
- تجليات النبوءة في الأدب العالمي.....١٦٢
- مسرحية ماكبث.....١٦٤
- الخاتمة.....١٧٠
- الكاتب في سطور.....١٧٣
- مراجع البحث.....١٧٥
- الفهرس.....١٧٩

الإنسان القديم – بداية الوجود وفجر التاريخ الأول– عرف الطبيعة البكر التي كانت بالنسبة له مجهولاً غامضاً، يمور بالأخطار المحدقة عند غياب الشمس، فعاش في هذا الغموض أحقاباً عديدة متتالية، حتى ألفَ المحيط حوله، وبدأ يصوغه بلمسته الإنسانية الأولى مبتعداً عن الهمجية والمشاعية، ومرتقياً الدرجة الأولى في سلم التطور الطبيعي.

من هنا بدأت قصة الروح والوجود، فقد جمع العقل البشري في بداياته معارف بدائية مكتسبة، وجمع أيضاً خبرات بسيطة من تجاربه اليومية التي كانت تهدف إلى البقاء فقط، وأصبحت الحياة العادية تجنح إلى الرقي والراحة، فانتقل من العيش في عتمة الكهوف إلى العيش في الهواء الطلق، وانقلب دوره من الهروب كفريسة للحيوانات التي شاركته الطبيعة إلى صياد، ومن صياد يلاحق الحيوانات إلى مُربٍ لها، ومن إنسان متنقل إلى إنسان مستقر قرب الأنهار والبحيرات الضخمة طمعاً بالنباتات المتنوعة التي كانت بالنسبة له واحدة من مصادر القوت.